حكاية رجل

تعب من تفسير الماء بالماء

قصص

جمال طه غلاب

رفيقي للطباعة والنشر
Rafiki for Printing & Publishing

2018

القصـــــص

كالَميتِ في قبْرِه	7
موظفَ يتهدده الصَلْع	13
نارٌ في الجسدِ، رمادٌ في الروح	18
نهرٌ خلفْ الدروب	25
على السجّية	30
وصمةُ عطرٍ	38
هندسة غيرٍ مستوية	43
كلٌّ مَنْ يشبه الحبيبُ، حبيب	47
فاكهة مُهملةَ	51
تحت الكشافات	60
سيرة قبر	70
دفارات مُفَخخة	73
السهر والحمي	79
حارسة القدور السود	84
الذئب و الحمل	90
صفقات مشبوهة	95
ديناصوارت في خدمة الحداثة	99
محاولة انتماء	107
ذهاب و إياب	119
ميثاق السعادة العبيط	132
حكاية رجل تعب من تفسير الماء بالماء	144

حكاية رجل

تعب من تفسير الماء بالماء

كالَميتِ في قبْرِه

ليلة سفره نمت بحمل خفيف و حمدت الله كثيراً لأنه انشغل عني بماذا لا أدري، و لم يقربني و صحوت كالفراشة و زغرد قلبي عندما وصلني صوت موتور عربته و هو يبتعد. أول شيء قفز إلى ذهني هو أن أشرع في البحث عنه تواً، بلا تلكؤ و بكل الحرقة التي أحملها في داخلي و بكل الشوق الذي يملكني.

هذا الذي سافر يسافر كثيراً، و غيباته قصيرة، يسافر ليوم أو ليومين ثم يعود، يأخذ سيارته معه، و هذه المرة اختلف الأمر قليلاً فهو سيغيب عدة أيام كما قال و قد تمتد الفترة إلى شهر و لو غدت سنوات فذلك سيكون مصدر سعادة كبيرة بالنسبة لي. هو دائماً مستغرق في شؤون لا أعلم عنها شيئاً و قد أحبني من أول نظرة. هكذا قال لي في الفندق في شهر العسل و ضمني إليه. لا اذكر نظرته التي اوقعته في الحب لأنني ما أعرته اهتمام كبير في المرات التي رأيته خلالها. دخل أبي علي ذات مرة و قال: إن فلان يريدك زوجة و كنت أفكر في قليل الكلام و اتذكر ملامحه المتعبة و هو يطلب مني بحزن أن لا أربط مصيري بمصيره. لم يبدر مني ما من شأنه أن يدفعه لقول هذا الكلام و كنت صابرة و مستعدة لانتظار طويل و عقبات ستحول بيننا و قط لم أسمح لأفكاري أن تحوم حول الفراق و حتى عندما قاله فإنني أحببته أكثر لأنه إنما

كان يقوله من أجلي. نظرت في عينيّ أبي. نظرته ظاهرها الاستشارة و باطنها التهديد و الوعيد. سكت و لم أقل شيئاً و ما كنت أدير الأمر في ذهني و لم تكن تلك علامة للرضا لكن أبي قام مسروراً و بعد هنيهة من مغادرته الغرفة انطلقت زغرودة أمي.

في كل مرة يغيب فيها زوجي أقوم بمحاولات خجولة في سبيل الوصول إليه. ترددت على الحي البعيد مرات و لم أجرؤ على السؤال و وجدت أن البيوت تبدلت و الشوارع تداخلت و بات من الصعب العثور على علامة تدل على المواقع القديمة.

المدرسة لا أقع عليها، أقع على عمارة قيد الإنشاء. كنت أخرج من المدرسة و أجده في الانتظار. مرات نمكث بالمحطة و مرات نطوف بالشوارع القريبة و نعود إلى المحطة عند الغروب على أيام الدروس المسائية. القلق و الخوف تحكما في حركاتنا و سكناتنا و مع ذلك مرت علينا أوقات جميلة. لا أعلم لم أن ذكراه باقية لا تمحي هكذا و ما كنت أريد لها أن تمحي. ربما لأنني ما أبصرت في عينيه الطمع الذي أبصرته في عيون كثيرة طاردتني و افترستني و فتكت بي. كانت له نظرة كالتربيتة، كالمواساة و كالعتق من النار. بعد الزواج أخبرتني صديقة متابعة أنه لزم الفراش زمناً طويلاً و بعد مغادرته صار أكثر نحافة و إطراقاً و أقل كلاماً. ثم لم تعد الصديقة للحديث عنه مرة أخرى و استحيت فلم أجرؤ على سؤالها. لن أسال أحداً و سأبحث عنه في كل مكان.

ليست لدي خطة بعينها، فقط سأخرج في أوقات لا تثير الشكوك،

سأسلك سلوك الزوجات اللائي يقدسن الحياة الزوجية و يحفظن الزوج في ماله و عرضه و عياله و لن ألفت انتباه أحد.

في الصباح التالي لسفر الثقيل خرجت و توجهت إلى السوق و من هناك استأجرت تاكسي إلى الحي القديم. عدل السائق المرآة و صوبها إلى وجهي فغيرت من وضعي في المقعد الخلفي حيث صار بحاجة إلى مرآة أخرى. فعلت ذلك بلا حياء و لا خجل فلم يلتفت و لم تمتد يده صوب المرآة مرة أخرى. لو إنني كنت أفعل كل ما أفعل بلا حياء و لا خجل لربما جرت الأمور في غير هذا المجرى، لكن تعودت أن أُبدي الحياء و الخجل في كل حركة و سكنة و في ليلة الدخلة أذكر أن زوجي فعل الكثير و ما كان لي من عمل سوى أن أبدو في هيئة من لا يأكل و لا يشرب و لا يتنفس سوى الحياء و الخجل. ذلك ضروري للمرأة لكنني لا أذكر أنني في حضرته كنت احتاج إلى الحياء. هذا الحياء يريده من هم حولي و أنا لا دخل لي في الموضوع. المهم سائق التاكسي فهم شيئاً و ما زال لدي الكثير أريد إفهامه للآخرين. سوى فهموا أو لم يفهموا أنا ماضية إليه و لو استدعى الأمر السفر إلى آخر الدنيا فإن ذلك هين و يسير فلا أحد يعلم كم احببته غيري، و لا أحد له دخل بهذه المسألة غيري.

أمرت السائق أن يتوقف ففعل و لم يجرؤ على النظر في وجهي و أنا أنقده أجرته. مضيت عالية القامة، و صدري بارز إلى الأمام و أردافي ثقيلة ورائي، و الحنة منقوشة قلوباً و خطوطاً و مثلثات و مربعات على كفي ظهراً و بطناً، و قدمي حتى الساق، حول ساعديّ أساور تكشكش و محفظتي

مزخرفة أضمها بحنان تضم أوراقاً من فئة مائة دينار و خمسين دينار كلها جديدة و لم أكن أعرف وجهتي.

و لكنني لن استسلم، إذا تجولت قليلاً فسأشرع في تذكر المكان و ربما يعود الزمان الذي كان. لا. هذا لا يحدث. الماضي لا يعود. قرأت هذا في كتاب. ضاع الكتاب.

هناك عيون تترصدني و هذا أمر عادي، لم أكن متعطرة لكن انزلاق الثوب وحده كاف لتطيير العقول. أُشهد الله أنني لم اتعمد زلقه، و يعلم الله أنني تمنيت التحول إلى امرأة خفية حتى لا تحدث أي مشاكل لكن المشاكل سرعان ما أطلت برأسها. جاء شاب من الاتجاه المعاكس و عندما حاذاني قال إنني مهرة و إنني جمرة و لفحني سموم و هو يتخطاني فخفت أن يجن جنونه فيمتطيني على إنني «فرسة» فأسرعت الخطى. بعد ذلك توقف بوكس بالقرب مني و دعاني رجل بدين إلى الركوب فصعرت عنقي فضحك.

تركت الشارع الكبير و انحرفت إلى الأزقة. سرت بلا هدي و كان ينبغي أن اتلفت بحثاً عن الذي ضاع و ان أتأنى و أن أقف و أوقف العابرين لأسألهم لكنني لم أفعل شيئاً من ذلك لأنه كله لا يجوز و لأنه يجر المشاكل.

عدت أدراجي و أخذت اتصور ما كان سوف يحدث لو أنني لقيته. حقاً ماذا كنت سأفعل و ماذا سأقول إذا وجدت نفسي بين يديه؟ لا أدري، لكن لا بد أننا كنا سوف نجد الكثير لنقوله و نفعله إذا ما ابتسم الحظ. ربما هربنا سوية إلى مكان لا يبلغه جن و لا أنس. ذلك أمر بديع. مع من أحب أدواي

جروحه و يمسح عني الغبار. لن اهتم بمن خلفتهم ورائي و لو أنني نُسيت و اعتبرت في عداد الموتى فذلك غاية المُرام. لكن ذلك حلم، ليس إلا و على الآن أن أفكر فيما سأفعله غداً و بعد غد و بعد أسبوع فلا بد من حدوث شيء قبل عودة المسافر.

بتّ أخرج كل يوم ممنية النفس بصدفة يطل بها وجهه المتعب ليعزي القلب المنهك و يعتقه من العذاب. لا شيء غير الطمع يلمع في العيون التي تحدق بي. تزايد عدد مرات ترددي على المنطقة كفل للشبان جرأة إضافية فباتوا يدنون مني بصورة أكثر وقاحة و يخاطبونني بلهجة عكست عباراتها تهيجاً عارماً و أوقفني أحدهم و قال إنه يريد التحدث معي و أضاف أن الشارع لا يصلح للحديث و دعاني للذهاب معه فابتعدت متعثرة.

في غرفتي و قبيل النوم، أمضيت وقتاً طويلاً و أنا أنظر صورتي في المرآة. تملكني غضب فأطفأت المصباح. بقيت هكذا و شبحي إزائي لا تصدر عنه حركة. الذهب على «الصايد» يخدش الظلمة ببريقه. في القاعة «حافلة» تعج بالأطقم العاجية و البرونزية و المفضضة. ثلاجتين في المطبخ و فيديو في الصالون و تلفاز عملاق و تلفون عنابي في الصالون و أبيض لغرفة النوم و ستائر منسجمة في اللون مع قطع الأثاث التي سيجري تجديدها قريباً. ماذا يعني هذا كله لشبح؟ ماذا يريد الثقيل من شبح و كيف راق لهم إحالتي شبحاً ثم تركي على هذا النحو وسط كل هذا الظلام؟

لكنها غلطتي. أذكر أنني لم أذرف دموعاً يوم عرضوا على الزواج و اعتبروني موافقة، و لم أغلق باب الغرفة عليّ و امتنع عن الطعام و أهدد

بالانتحار كما في المسلسلات و كما لدى الجيران، ظللت ساكتة بل ابتسمت عدة مرات تحية لفرحة والدي. أين الآن الأب و الأم و أنا في الظلام وحيدة وسط كل هذه الثلاجات و الأثاثات و الإكسسوارات و أي مسرحية فاشلة بلا جمهور هذه التي أنا أحمل عبء البطولة فيها. من يواسيني و من يفهمني. لكنها غلطتي. أخفيت الألم بمهارة و لم أطلع أحد على سري الثمين. كل ما يتم اخفاؤه بمهارة يتحول إلى كنز. كنزي، سري و العذاب. شبحي يواصل الحياة بين الحوائط التي عليها صحاف سوداء بآيات مذهبة. أنا ليس من يعيش و يتنفس هنا، بل شبحي و أنا هناك.

لم أوجه ضربة إلى المرآة لتتحطم و يخضب الدم كفي، و لم اتوجه إلى الثلاجة حيث علب أدوية كثيرة يمكن أن تضع حداً لكل هذا، لم أحرّك ساكناً و ما ذرفت دموعاً، بقيت الليل كله على الأريكة و شبحي إزائي، أحدق فيه بحقد و أنا مكبلة بالذل و حشاي محروق، ثم وصلني صوت موتور عربته فتوجهت إلى الفراش و تمددت كما يتمدد الميت في قبره.

موظف يتهدده الصَلْع

تعمدت النظر الى عيون الأولاد و هم يتعثرون لمغادرة الدار فرأيت الومضة القديمة التي كانت لنا حينما كنا نفعل ما يفعلون. لم أكبر جداً لكن ما عدت صغيراً، مرحلة مخجلة من العمر هذه التي بلغتها، مرحلة صعبة، لا ادري لم أنا على هذه الدرجة من الخجل لبلوغي هذا السن، صلعة خفيفة تزحف و تبيد الشعر، وظيفة صغيرة تبيد العمر، عودة يومية في الثانية بجريدة متعددة الطيات و أول الشهر كيس مليء بالخضار و نصف كيلو لحم و موز. غير متزوج و أخجل من فكرة الزواج و إذا دعا الداعي إلى التطرق لمناقشة الفكرة فأنني عادة أحوّلُ مجرى الموضوع. ربما لا يحق لأمثالنا نحن الذين كبرنا و أخذ الصلع يتهددنا و الوظيفة الصغيرة تحكم قبضتها على خناقنا سوى الخجل ، نخرج في العصريات بجلابيب نظيفة و نضع الكراسي عند النواصي و ربما نشاهد التمرين. و في مثل هذا الصباح الذي هو صباح العيد ليس لدي أمثالي الكثير ليفعلوه. و أنا أدخل ذلك البيت لمباركة العيد رأيت الومضة فتذكرت أنه كان لدى ما أنتظره في مثل هذا الصباح و تذكرت : ماذا كان يعنى لنا صباح كهذا.

عندما تركت بنات الحلة بيوتهنّ و قطنّ قلوبنا المفتوحة لهنَّ أربع وعشرون ساعة أكتسب صباح العيد مذاقه الجديد اللذيذ. بدأنا نكبر، لم نعد أولاداً و

صرنا نفكر بهن كثيراً و نتحدث عنهن و نحلم بهن، في الحقيقة هذا حاصل الآن لكننا نخفيه، أنا أبالغ في إخفائه، بعد مرور العمر بدون إنجازات ملموسة يصير لدى الواحد الكثير من هذا: الحياء، الخجل، الصلعة الخفيفة، الراتب الصغير، الوظيفة الضيّقة و العالم الأضيق، كيف يمكن لشخص وصل المرحلة المخجلة من العمر التصريح بأمور مثل هذي. زمان صرحنا و خططنا حينما أفردنا لهن القلب و الذاكرة و الغريب في الأمر كأن تلك التفاصيل لم تمض عليها كل تلك السنون، فكيف هذا؟

كان دخول بعض البيوت من المسائل المحظورة و الخطيرة، ففي البيوت لآلي، وفيها بدور و أمهات حارسات يحلمن بعرسان لهم القدرة على جلب لبن الطير مبستراً و ظل صباح العيد مناسبة ذهبية للدخول دون لفت الأنظار و إثارة الحرج. يفرغ الناس من الصلاة فيجدون الأبواب مشرعة، يدخلون، يخرجون، العيد مبارك عليكم، القابلة على منى، القابلة عريس، البيوت مهندمة، العالم أبيض، النوايا بيضاء و الحلوى تدور و نحن لا نجد حرجاً في التسلل للجزء المخصص للنساء في كل دار. بعض الفتيات ملء العين منهن حلم صعب المنال ناهيك عن مصافحتهن كفاً لكف.

العيد يوم مبارك، وصباحه أبرك، فيه تنفتح أبواب السماء وتتحقق أمنياتنا في تكحيل العين بوجوه لا نراها إلا كما ترى الشهب الراجمة و هي تعبر السماء خطفاً و فيه نلمس أكف عزيزة علينا، الخدوريات و الصفوريات و الحموريات. أكف مبللة و أخرى مخضبة و العالم سعيد و الوجوه تشع. الدخول على النساء و هن منشغلات بما تنشغل به النساء شأن له مذاق.

لا حرج و مع ذلك فأنهن يسارعن إلى تعديل أوضاعهن و ذلك ما يعمّق الإحساس أننا في حرمهن و أن الأمر هو كذلك. تسللت مع رفاقي في صباح عيد قصي إلى خبائهن في ذلك البيت الذي ما فتئت أحبه و أحب أهله. لم نجدها مع الأم و الأخوات المنشغلات بإعداد الطعام. كنا نعلم أنها بمكان ما لأن رائحتها كانت تختفي و تلوح، انتابنا أسي طفيف و ندم على إننا لم نحسن التوقيت، باركنا العيد، تلكأنا قليلاً ثم شرعنا في الخروج و لما كنت آخر الخارجين فإنني تمكنت من اختلاس النظر الى غرفة جانبية فلمحتها و هي جالسة قبالة المرآة تمرر المشط على شعرها. قضينا يومنا و حسرة رقيقة تلفنا. لم تلتق الكف بالكف و ما صادفت العين العين. لو بكيت فلا لوم عليّ.

لم أبك و زفت الى زوجها في العيد التالي و بدأت المرحلة المخجلة من عمري. يتضاعف خجلي و أنا أتذكرها و أتذكر غاية الأماني :ملء العين منها، بلوغ المرام :لمس كفها صباح العيد. سافرت. دول الخليج، السعودية اليمن، السلطنة و ربما أمريكا. لم أتذكر ذلك الآن؟الأولاد قلبوا المواجع. بومضتهم تلك، بلهفتهم و هم يتخطون العتبات و أنا ضمن الفوج الوقور للكبار، ندخل و نخرج، أميل قليلاً عند المصافحة و أهزّ الرأس هزات طفيفة. الأواني التي يقدمون فيها الحلوى مذهّبة و مفضضة، الشراشف تخفق هنا و هناك. أبخرة الطعام و هي تختلط بالعطور المحلّقة تقلب دفتر الذاكرة صفحة، صفحة. يطول الوقوف لدى سطور كتبت في الحلم و أتقلّب في الفراش، قبيل النوم لأجد أن السنوات قد مرت و أنني تكرّست كموظف يتهدده الصلع و أن الفتاة التي كنت انتظر عيد الفطر على أحرّ من الجمر لأجل لمس كفها و

خطف نظرة هي غطسة في بحر عينيها قد تزوجت و طارت، استدارت ثم طارت. كلهن يطرن هكذا ما أن يستدرن و أنني تركت المدرسة رغم نباهتي لأجمع مالاً فأستحقها و أن الوظيفة صغيرة و أن العالم واسع تضيقه وظيفة و هجمة المسؤوليات قبل أوانها و أنا الآن في الفراش أتقلّب و هي بعيدة و بيننا بحر، بيننا جبل. صلعة كالوباء تزحف و سنوات تمرّ. ربما هي الآن قبالة المرآة تمرر المشط على شعرها، و ربما تتزين أو هي تهدهد الصغير لينام.

بيت صغير في الغربة و به أجهزة ستشحن عند اتخاذ قرار العودة النهائي. زوج يجمع المال. ترى هل يتهدده الصلع كما هو حالي، هل ترك المدرسة لينالها ، هل انتظر صباح العيد على أحر من الجمر؟هل أخفى حبه كما أخفيته؟ لم يرد أحد على أسئلتي فقلت:يوم مبارك كهذا لا تنفع فيه الأسئلة، يوم مبارك كهذا جوزوا فيه حصول بعض المعجزات فشرعت في مخاطبتها. عبر صوتي البحر و الجبل و بلغها في غرفتها التي تشبه الصناديق الصغيرة المكسوة بالقطيفة و المبطّنة بمخمل براق و التي يضعون فيها الحليّ. كانت تتخفف من حليها، الأقراط و الغوايش و الكردان. عائدة من مناسبة عند الجيران. زوجها يغط في النوم.

احتفظت بالخواتم حول أناملها. زوجها يحب عضات المعدن و هي تتشبث به في الفراش. يعتز بآثارها على جسده.

قبالة المرآة الضوء خافت و صورتها في المرآة أجمل من شخصها.

قلت:العيد مبارك عليك.

قالت:بارك الله فيك.

قلت:كيف هي الغربة؟

قالت:لم أكن أحلم بكل هذا الذهب.

قلت:لم تزوجت و تركتنا؟

قالت:لم أذهب بعيداً.

قلت:أين لي أن أراك ثانية؟

قالت:عد إلى دارنا صباح العيد، أختلس نظرة إلى الغرفة القديمة، تجد صورتي في المرآة.

قلت:تبدين سعيدة، هل عرفت من أنا؟

لم تقل شيئاً، نهضت، ذهبت إلى غرفة الصغار اطمأنت عليهم، أطفأت الأنوار و ظلت صورتها تضئ المرآة. لم تكن تبتسم و لم يبد عليها الحزن، كانت كمن يتهيأ لأمر يعرف أنه لن يتم. بعدت رائحة العطر فقلت لصورتها في المرآة:تصبحين على خير، متّعك الله بالصحة و العافية.

نارٌ في الجسدِ، رمادٌ في الروح

قطع الطريق الي غرفته بخطوات بطيئة متثاقلة، كان يمشي مطرقاً و يشيح بوجهه عن المارة القلائل الرائحين و الغادين في الطريق التي هبط عليها الغروب. الكآبة المطبوعة على وجهه جعلته يبدو أكبر سناً مما هو عليه و كانت رغبته في الخلود الي غرفته زهيدة هذا المساء، لكن الشوارع و الأزقة المعتمة خالية و لا تشجع على البقاء وعندما وصل غرفته في الركن الكابي بالفناء الواسع طرح حشيته المهترئة على السرير و انطرح عليها و واجه نجوم الصيف المتباعدة بعينين تطفحان بالأسى.

عشرات المرات حدث هذا و عشرات المرات سيحدث، الأسى في العينين ، الأفكار السوداء في الرأس جزء من الحياة، حياته. ظلت عيناه مفتوحتين طيلة الليل و فكّر في أمور كثيرة و مختلفة، فكّر بعمق و بحزن و بين الفينة و الأخرى يقول لنفسه إن أموراً مرعبة تجري الآن بمكان ما و ربما في كل مكان و تتبع بتفان الحركة الدؤوب غير المنظورة التي تلعب بالكواكب و الأفلاك و تُبدّل مواضعها و التقطت أذناه أصوات الليل فبعث بعضها شعوراً موجعاً بالغربة و الضياع و لكن بعضها أدخل الطمأنينة و السكينة الي نفسه. تلك واحدة من الليالي التي لا ينام فيها و التي يُكثر فيها من تأمل السماء و من التفكير و من الحزن. بين كل فترة و أخرى يحدث شئ من هذا القبيل

دون معرفة لمَ تجرْ الأمور على هذا النحو.

العزلة و الظلام والصمت و تأمُّل السماء و التقاط الأصوات الهاربة عادات ثابتة لديه، ما من ليلة من لياليه تخلو من ذلك لكن الليالي الممتدة حتى الفجر في عدّ النجوم و في التفكير بمصائب ما وحدها تكون مختلفة. ردد بينه و بين نفسه إن أموراً مرعبة تجري بمكان ما و أيضاً قال ان ما سيحدث هو ما يحدث الآن و ما حدث من قبل.

تجاوز الوقت منتصف الليل و مع ذلك فانه أحسّ بنشاط متدفق يملأ كيانه يشبه النشاط الذي يستشعره شخص يتهيأ لنزهة في الحقول رغم أنه طيلة عمره لم يعرف الحقول الا باسمها.

هذه الحيوية في الجسد لا تتناسب و الأسى في القلب و مع ذلك ظلت تنبض حتى الصباح بينما ظل الأسى بمكانه أليفاً هادئاً وديعاً و ما ان طلعت الشمس حتى تواريا معاً: الحيوية و الألم و استعد الرجل ليتخذ هيئة الشاب الصموت و المهموم قليلاً طيلة الرحلة الي العمل و طيلة رحلة العمل احتفظ بتلك الهيئة.

طُلبت منه طلبات، ملفات و بدوره طَلب ملفات، تناول شطيرة لا طعم لها و أشاح بنظراته عنهن و وقّع و انصرف بعد انتصاف النهار.

فناء الدار فسيح و ممتد و الغرفة صغيرة و منخفضة تنزوي في الركن مثل صبارة في تيه وسيع. جوار سريره منضدة عليها كومة كتب و كومة مجلات و على الجدران صور ما عادت تُؤنس وحشة بعضها. بدخوله الغرفة انتابه رعب

و بعد ملئها برائحة الحذاء امتلأ الجسد بالنشاط الغريب، نشاط الحقول و المروج و الخروج.

حدث هذا عدة مرات ، في العمل يحس انه على وشك الموت من شدة التعب و في الغرفة يحس أنها أضيق من أن تسع نشاطه المتفجر و إقباله على الحياة. هكذا دائماً و بلا سابق إنذار و هو لا يجد تفسيراً للأمر و لا يعرف كيف يتصرف حياله.

لا يشعر بأي رغبة في تصفّح كتاب و تلك علامة. إنها علامة من علامات ليالي و نهارات الإقبال على الحياة التي في قرارة نفسه يخشاها بقدر ما يحلم بها. انه لا يفهم لمَ يتخيل الآن حدائق مُزهرة عند عتبة الدار تنتظر و فتيات بنظارات شمسية باطارات بيضاء في أروقة فندق به حفل و لا يتساءل عن سبب يكمن وراء هذا، فقط يتمدد و وجهه الي الحائط في محاولة للنوم الذي لا يأتي. تعوّد على الأمر و الآن في عز النهار تتمنع عليه قيلولة الظهيرة الصغيرة فينهض ، يجلس مطرقاً و يتخيل بل يتذكر فتاة، فتاته تنتظر الآن في ظل خميلة فيكاد يقوم ليستحم و يصير على أهبة الاستعداد للذهاب الى الكازينو، الى المنتزه، الى الحدائق، الى مكان لا يشبه ما تعود على الذهاب إليه، لولا استدراكه أن لا فتاة له.

ماذا يفعل الآن بكل هذه الأروقة الغارقة في أضواء شفافة مثل الماء، و الحدائق التي في كل مكان هل سيجد الوقت الكافي ليقطعها بخطو متزن و هو خالي البال، و الموسيقى السرية المتصاعدة الآن هل من سبيل الى تصفية جميع الأفكار و الأعمال و الإنصات لها بكامل التفرغ و الأريحية و نسيان

عادة أخذ القيلولة القليلة القلقة الناضحة عرقاً صيفاً و شتاء في الظهر و هذه البدور و هذه الشموس هل ستبقى طويلاً أم سترحل.

لم يعد قادراً على المكوث حيث هو و ما به رغبة للغداء، ما انتظر الأصيل، انتعل الحذاء المضحك و القميص الأثري وخرج. من جديد شوارع و أزقة و أصداء خافتة لحدائق بعيدة و ناعسة. قضى الوقت حتى الغروب في التسكع، تسكع بدون هدف، و استشعر قدرة لا تنقضي على المشي، سيمشي حتى الصباح، دون توقف. طيلة تسكعه هدهدته الموسيقى السرية و ظلت تلمس شغاف قلبه بحنان الأضواء المائية و أطلت عليه من نافذة هناك الوجوه المطمئنة الآسرة المؤتلقة و بينما استغرقته الرحلة الى لا مكان لم يكسل اعتقاده في أن أحد الخطوات ستنقله الى هناك، لكن الخطوات مدت لسانها للاعتقاد النشيط فحملته الى غروب متسلط متسلطن، ببزة عسكرية كالحة و هي بزة عسكري فار من الحرب، غروب مهزوم يأمر دون صوت:عودوا الى الجحور، فيعودون. و هل يعود هو أيضاً؟يعود فهو لا يملك الا أن يعود. لو بالإمكان السؤال لسأل و لو بالإمكان الفهم لفهم، لكن ما يحدث، هو هكذا، يحدث بين فترة و أخرى ثم ينقضي. أثناء المرور بالشوارع هذا الأصيل امتلك ثقة غريبة في أنه إذا كلّم أي فتاة فهي ستكلمه لكنه لم يكلّم و لا واحدة و لا واحدة كلّمته. ما حدث عدة مرات هو ظهور فتاة في الاتجاه المضاد فكان يُحيّ صنماً ينتصب في قلب جزيرة نائية و يقول:هاهي، سأقول مساء الخير و عند تقاطُع الخطوات تنكسر النظرات و لا يقول و بعد اختلاس نظرة واجفة تضيع الفتاة و بعد سبع خطوات من تبخرها يفكر في العودة القَهقَرى لخوض المشروع بجدية أكبر لكنه لا يعود بل يستمر فثمة فتاة أخرى

ستظهر هناك. من هناك يظهرن و الى هناك يمضين. يوماً ما سيمضي الي هناك. ربما غداً أو بعد غد و ربما بالأمس. و ماذا لو أنه اللحظة في هناك؟ربما، ولكن لا.

الحشية مهترئة و النجوم كثيرة و الحلقات التي لا تنتهي تحبس الجميع في بيوتهم. الناس جميعاً يعدّون نجوم الشاشة و يحفظون أسماءهم و أسمائهن و هو يحلم بعدٍّ نجوم السماء و التعرف على أسماءها. ها هي أمسية أخرى من تلك الأمسيات، ضوءٌ في الجسد، نارٌ في الجسد، عتمةٌ في الروح، رمادٌ في الروح و النار خامدة و الرماد متأجج و الكون متعب و يُخفي من الأصداء ما يُتعب. لو انه شاعر لكتب قصيدة الآن و لو بالجُحر كهرباء لقرأ قصيدة تتناسب و المقام ، لكن الجحر بلا كهرباء و هو جحر خارج جميع المقامات مستسلم لجُحريته و لا ينوى مغادرتها رغم كل الإنذارات المتكررة من الروح و الجسد معاً.

ظل في الفراش متشبثا بالفراش، ملتصقاً بالفراش في الحين الذي غدت فيه روائح الطَلعْ و التربة المبتلة شمساً دافئة لا تُبصرها سوى الروح و هي مُغمِضة و مغموطٌ حقها و عندما جرَّ الملاءة ليُنيم روحه قبل جسده تصاعدت الموسيقى و طافت في أرجاء الليل المبهوت من شدة بُهوته حتى أنها صارت شيئاً يُلمَس. يجب أن يخرج الآن، و لكن هل سينجو ليعبر مفازة الليل، و يَحطَّ رِحاله هناك أم هل ستدفنه الرمال السوداء؟في كل المرات السابقة لم تكن الرغبة في الخروج بهذه الحدة و بهذا العنف، في كل المرات كانت الرغبة في الخروج تتصاعد و تصّاعد على نحوٍ متعثر و متخبط لتسقط في نهاية الأمر من دون أن يصدر عنها صوت يدلٌّ عليها و هو الآن يرغب

في السقوط أكثر من رغبته في الخروج. في انتظار السقوط صنعت الموسيقى تعريشة ظللت ممراً آمناً يقود الي المروج التي لا نهاية لها. امتدت يدٌ خفية انتشلته من أمواج الفراش الحمقاء فنهض و ضَرَبَ بالليل عرْض الحائط و خرج. الليل الذي اصطدم بالحائط صامت و فارغ و في الظلام اتقدت العطور و سادت الموسيقى. سيمشي، لكن في أي اتجاه و الي أين؟دائماً هناك الظن بذلك الممر و عند أول بادرة لمُلامسة اليقين يتم اكتشاف تشابُه الممرات في الظلام و لو أنه بقي بالفراش لكان الأمر أجمل. لكنه نهض، فليواصل المشوار. هذا المهرجان القديم هو دعوةٌ لا تبيّن للمدعو كيفية المشاركة لكن أهو الذي يُطارد المهرجان أم أن هذا يطارده. في وسطْ الأيام التي تمضي متشابهة، و تمضي مُثقلة بالملفات و بالشطائر التي لا طعم لها و بكل ما هو بعيد عن هذا الذي يبدو أقرب من حبل الوريد يختبئ المهرجان و يُهيئ أجراسه ليطلقها هكذا على حين غرة فتتأجج الروح و يضطرب الجسد. تدقّ فجأة لتصمت فجأة و لو صمتت الآن لاستراح هو. لكنها تتصاعد و تُحاصره و تقود خُطاه في مفازة الليل الطويلة و تستحِيل همساً لا يجيده إلا السحرة:أنأ هناك فتعال، فيمضي و مع ذلك لا يحدث شئ سوى الروائح و الموسيقى البعيدة و ثَمة حقول و شموس و خطوة في اتجاه ما ربما تؤدي الى هناك.

مشى طويلاً و فتّش عن حقولٍ في أرض لا تعرف ما الحقول. بعد طلوع الشمس بقليل وجد نفسه قُبالة بابِ المصلحة التي يعمل بها. في الصباح و إذْ يجد المرء نفسه قُبالة باب العمل لا يملك الا الدخول. جُلباب نومه كان قذراً و مع ذلك لم يأبه، شمّر عن ساعديه، غطس في الملفات. عندما رفع وجهه عن الأوراق رأى عيوناً كثيرة تتفحصه بإمعان و تعجب و سخرية. لم يأبه،

شعر أنه عُوفيّ من مرضه المُعاود و ها قد حلَّ بجسده الكسل الأليف و ضِيقه الأليف الذي يعطيه ملامح الشاب المهموم وفي الطريق الى كُشك الشطائر تجاهل جميع النظرات و فكر أن الزمن الذي سيمضى قبل عودة الحقول و الموسيقى مرة أخرى قد يطول.

نهرٌ خلفْ الدروب

بيني و الباب خطوات و مع ذلك انحرفت و تقهقرت و مضيت في اتجاه معاكس. درت و لففت تحت الشمس و بدا لي أن شيئاً ما سيحدث و بعد كثير من اللف و الدوران ما حدث شئ فعدت. هدأ نباح الشمس و هي تغرب فخرجت ثانية. نظرت الي المصابيح. لو ظهر النور أقل اختناقاً فسأنطلق بهم أقل و صدر أكثر انشراحاً. قلّما ظهر غير ذلك، فبت مقتنعاً بالغبار: يعشش في عينيّ و يخرج من دخيلتي.

مشيت حاملاً اسماً هو الفاتح و حلماً بأشعة لم تخنق بعد.

مشيت و ما مددت البصر و حتى لو فعلت، هنا و هناك الظلام. سمعت صوتاً و ما كنت أفكّر في شئ لأقول انه قطع علي حبل أفكاري، صاحب الصوت ظنني شخصاً آخر يدعى سيف، ربّت على كتفي مكرراً الاعتذار ثم اختفى.

عند المنعطف استعذبت فكرة لو إنني شخص آخر اسمه سيف، ربما سيكون للدنيا طعم آخر باسم كهذا الاسم. أصحو و أنا الفاتح، أنام و أنا هو، أغدو و أروح و لا يحدث شئ.

في الصباح وضعت اللمسات السيفية الأخيرة و أنا في الطريق الى المحطة. أعفيت سيف من الحدبة الخفيفة التي للفاتح و نمّت تقاطيعه عن وسامة مستحبة، لا بد منها لمن يريد تكريس حياته لمشاريع غامضة كالتي يعج بها رأس سيف.

بعض الوقت يمر ثم يرتفع الستار عن جثة حلت محل جثة. الفاتح الذي كنته انتظر طويلاً حدوث شئ ما و بقائمة طويلة ظلت تسبب له صداعاً لا تجدي معه أي مسكنات كان يدب في الشوارع و يتسكع هنا و هناك. أمضى قسماً كبيراً من وقته في جمع الكتب، قراءتها و الحلم بها و بكتابتها، تأمّل المصابيح العمومية و الفرح حين العثور على نبرة يظن أنها المطلوبة، اختلاس النظر و رسم صورة لما يمكن أن يكون عليه الحال خلف الأبواب المواربة ، التعب و الصداع الدائري و الدخول الي النوم من بوابة الموت.

التفت فأرى الفاتح واقفاً في مكان ما لا يبدي حراكاً، محطة مواصلات، ضفة نهر، أسفل سور عال وقد أسقط في يده.

فعل ما في وسعه، خبّ أحياناً، انتظر و دائماً ظل يجرجر قدمين مثقلتين ثم انتهى الى أقصى ما يمكن بلوغه: الوقوف بلا حراك.

لم تبد على سيف رغبة الوقوف كالصنم بمكان ما و لم يبد عليه أنه يهرب من التطلع الى الأشياء، كما تجنّب الاصطدام بالعابرين من الاتجاه المضاد.

راقبته و استمررت في مراقبته بخوف و رجاء، في محطة رفض انتظار الباص و أدار ظهره للزحام. كانت بداية مشجعة، لف و دار و أنا أراقب حتى

وصل محطة مواصلات أخرى. محطات كثيرة هي هنا و هناك و لكن المهم هو أن تعرف ماذا ستفعل سواء في محطة أو مرحاض، تظل هناك بارقة أظلّ متشبثاً بها حتى النهاية.

انزعجت للشعور الذي انتابني و هو أن سيف هو الآخر رجل انتظار، يرفض الانتظار بالانتظار، و ينتظر نهاية الانتظار بالانتظار، و ينتظر أن تقع عليه الأنظار ليبُلغها رسالة ما و يأمل أن تشيح عنه الأنظار ريثما يؤهل نفسه للانطلاق من جديد لكنني هدأتُ من قلقي بالقول أن السيوف ربما لهم شأن آخر و ربما يتصرفون على نحو مختلف حتى لو ظهر أنهم يكررون أفعال الآخرين، نعم، نعم، سيف رجل ينجز رحلات عظيمة بجهد قليل، قد يبقى ماكثٌ حيث هو و يؤدي ما يؤديه قمر صناعي أو مركبة فضائية. كل ما حول سيف كان حول الفاتح، لكن الشخصين أحدهما ليس الآخر. ماذا ترى يا سيف، ماذا ترى يا ترى. مرات و مرات حاولت كبح السؤال و لكنه يفلت دون إرادتي. الموظفات في الأبيض و الطالبات في الأزرق، العمال مخاليهم من الخيش و النظرات دائماً زائغة زوغاناً يدعو للخوف، النظرات دوماً فيها ذلك التعبير الذي لا تتعب كثيراً في التعرف عليه و إذا أطلت النظر الي العيون فانك واجد أنها تطل بتلك الطريقة، طريقة البحث عن شئ ما و أيضاً ينتقل سيف من محطة الى محطة و ينزل من حافلة ليصعد الى أخرى و يخرج من انتظار فيدخل في آخر و اهرب من النظر الى وجهه لأتابع طريقته في المشي و أفترض أنه ينظر الي مناظر بعينها فأنظر لها الا وجهه خشية الوقوع على ملامح قد تُذكّر بالفاتح و أقول لنفسي أصبر عليه فهو سيفك.

قراءة الكتب علّمت الفاتح ذات مرة شيئاً عن الآخرين، علّمته أنهم قد يرثون للحال التي عليها أحد ما دون أن يعني ذلك شيئاً كبيراً، لكن بدء أحد في الرثاء على حاله يعني الكثير. ربما قرأ الفاتح كتبه لينتفع بها واحد غيره يوماً ما.

رغبت في الدنو و التحذير بصوت هامس: لا ترث مهما كان الأمر لكنني لم أفعل و فضلّت أن أظل مُراقباً. راقبته و هو يخترق السوق الي الجانب الآخر. مُراقَبته غدت متعبة لأنه يتسكع بلا هدف و لأنه يجرّ ساقيه جرّاً و ها هو التعب يحكم السكنات و الحركات و قلت رثاء يظهر على تلك الدرجة من الوضوح في مشية، سيكون قصيدة كلماتها تقاطيع الوجه و خطوط الجبين. النهر خلف المباني و بعض الدروب. رعشة غامضة يبعثها ذكر النهر في الجسد. أخذ ينمو في داخلي احساس مرير بان الشخص الذي سعيت الي أن أكونه يترسم خطى من كنته و ها هو يعود عند الغروب حاملاً كتاباً متردد الخطى و يتجنب النظر الى مصابيح السماء و الأرض. كأنني أتعامل مع جدار لا ينبت إلا في اللحظة التي يخيل لي فيها أنني دنوت من هدف ما. ينهض الجدار فابتعد عن الموقع و أتسكع هنا و هناك آملاً في زواله عند العودة أو لعلني أجد منفذاً و حين أعود لا أجده قد انهار بل أجده قد ازداد صلابة و تعمّلقاً بوجهي و وجه من جندتهم ليقوموا بمهام نيابة عني.

بعد هذا كله تبقى الورقة الأخيرة التي أجّلها الفاتح طويلاً و ظلّ يؤجلها و لم يعد الى التفكير الجاد بها الا قبل فترة وجيزة من مداهمة سيف له.

ذات يوم نظرت في وجهه بحذر أو فجأة أو الاثنان معاً فألتقت النظرات.

كانت ورقة النهر و ما من قشة للتشبث بها. صامتاً استدار الرجل عالماً بالنهر خلف الدروب وراء البيوت و بأنه لن يصدق أي قشة، و مضى من دون عجلة و تريّث قليلاً عند الضفة و لم يستدر و كانت مقفرة حتى لا يقرأ أحد قصيدته و حتى لا يقول وداعاً أو إلي اللقاء.

على السجّية

دائماً انتظر الليل على أحرّ من الجمر، دائماً الليل يعني لي الكثير. حلّ أخيراً فخرجت و تنفست الصعداء. دندنت و تمهلت، سرت على أقلّ من مهلي. بلغت نهاية العمران ، و ككل ليلة وقفت و وجهي إلى البيوت المتساندة أتتبع رعشات الأضواء البعيدة في الظلام. من هذا المكان أرى ما يراه شخصٌ على سطح سفينة توشك على الغرق، ما من سبيل إلى اليابسة غير البعيدة، أو ربما أرى و أحسّ ما يحسّه شخصٌ ينتصب على الساحل مُشرفاً على البحر الغاص بأفلاك تتلاشى و أنوارها تنطفئ رويداً، رويدا. هناك هذا دائماً و في الأحوال جميعها تصل استغاثات لا أدري، أهي قادمة من البحر، أم من الساحل، أم من غريق يُقيم فيّ.

أوليت ظهري للعمران و ابتدأت رحلتي. لن أصطدم بأحد و لن تقصيني يدٌ غليظةُ بحُجة عرقلة ذلك التدفق الأرعن و غير المُنتهى. ما من برِكْ أو كلاب، ليس ثمّة سوي الصمت و النجوم و أنا أتوغل في الفراغ إلَى أبعد مدى. ألتفت فأرى الأنوار شفافة و وديعة و العمران كأم رؤومٍ، قليل القسوة، غامر الحنان و على السجية أنطلق بلا رقيب أو حسيب. فعلت أول ما خطرَ بذهني فخاطبت شخصاً قريباً و عزيزاً إلى نفسي لا أدري أين ألقت به الحياة الآن، ثم رفعت عقيرتي بالغناء و تحوّلتُ إلى الشِجار و التلويح بقبضتي

فأحدهم داس على قدمي صباح اليوم في الباص و عندما نبّهته كاد يحطم فكي، و مشيت الهوينى ، لا أقوم بجهدٍ كبير و لا أثير حفيظة أحد.

ابتدأ هذا كله منذ فترة من الزمن. كنت في طريقي إلى النوم مرة فخطر لي أنني قد أدخل الدار فلا أخرج في الصباح التالي، أو أن أتأخر في الخروج محمولاً على العنقريب العتيد. اقشعرّت أطرافي و وقف شعر جِلدي ، تجمدت يدي على الأكُرة. تذكرت حمدان و كيف مات. أطلّ وجه صفية الذي محقه المرض. أتانا خبر موتها في الظهيرة الغارقة في الغبار. ماتت في المكتب المجاور و شبعت موتاً و نحن وسط الدواليب الرمادية و مناضد الكتابة البرصاء و الملفات. حمدان مات. صفية ماتت. موتى يموتون. راحوا و هم يغدون و يروحون إلى العمل، ماتوا في المكاتب الواطئة محاصرين بالعناكب و الأرضة، راحوا، الأرضة أكلت أعمارهم و عافيتهم.

انزلقت يدي عن الأكرة و تسكعت هنا و هناك و صدري يضجُّ بالضيق و بالخوف. تذكرت أنني لم أتحدث مع شخص ما منذ زمن فطفقت أحدّث نفسي بصوتٍ عالٍ. لم تكن حولي أشياء كثيرة لكن قلت لها أن الأغنية المُنبعِثة من راديو قريب تنساب جميلة. دنوت و التصقت بالجدار الذي خلفه الأغنية. في صوت المغني شجن و فيه كُوةٌ يرتعش خلفها نورٌ خافت و قبل أن أطل خرج رجل رآني التصق بالجدار فأتجه صوبي فابتعدت. لم انتظره و لم آبه. و لم انتظر و قد خرجت لأكون على السجية. لا نظرات قاسية تُحدِّجُ بي و لا اكتظاظ لا أول له و لا آخر. على السجية يعني على السجية. طيلة يومي، بل طيلة عمري و أنا مهدود و مهدد، تجدني وسط الزحام اطلب

الشرق فأجد نفسي في الغرب بإرادة من ذلك التدفق الحاسم و الذي لا يأبه بالوِجهة التي يطلبها الواحد، بل بالوجهة التي يفرضها فلم يعد لديّ ما أفعله بمحض إرادتي لأن كل حركة يقف خلفها أمرٌ صارم و سلاح خفي أحس به مُسلّطاً على العنق.

لم يحدث أنني عدتُ سالماً و غانماً إلى الدار، لم أنم يوماً قرير العين، جروحٌ وخدوش تنوء بها الروح، و الأدهى و الأمرّ ذلك التهديد البارد و حركة النصل البطيئة و الثابتة المُتجهة صوب الفلذة، كيف لي أن احتمل كل هذا و أواجهه أنا أقضي أيامي في الذهاب و في الإياب على هذا النحو المُتخبِّط؟

البنايات العالية تريد مني أن أبدو صغيراً و ضائعاً فأبدو صغيراً و ضائعاً و أزيد من عندي فأبدو مسكيناً صاغراً خائفاً. الحركة العجولة في الشوارع و في كل مكان تدفعني لأكون عجولاً مشتتاً فأبدو كذلك. رئيسي في العمل يحبُّ أن أهابه و أتجنبه و أظل تحت رحمته فأهابه و أتجنبه و أكاد أركع له. كل ما طلبوه و أحبوه و أرادوه أفعله و زيادة و أتحرك و حولي زنزانة كُوتها مُسيّجة بالحديد الصلب تهب منها الرياح باردة و هي تقول هم وغم، غم و هم غم هم، همغم، غمهم. هم غم هم غم هم غم هم غم هم غم هم غم هم غم. و في اليوم الذي انزلقت فيه يدي عن الأكرة أخذت أتسكع و أنا مهموم و مغموم. سرعان ما تشرق الشمس و تبدأ رحلة كل يوم. قلت لن أذهب إلى العمل بصوت عالٍ و لوّحت بقبضتي في الهواء و بصقت و سببت بصوت أعلى فنبح كلب رابضٍ أسفل جدارٍ، غنيت بل وصفقت، ففرحت

و انشرحت. جلوتّ عني الصدأ. غنيت و غنيت سعيداً بصوتي و قد انطلق من أسره و طغى على مرثية الرياح الباردة الأبدية.

منذ تلك الليلة اهتديتُ إلى الحلول الفردية التي من شأنها التخفيف من ثقل الحياة التي أعيشها و من بؤسها. أتحدّثُ مع نفسي بصوتٍ مسموع و أطلق عقيرتي بالغناء لقطعِ الطريق على مناحة الكوة السوداء. و استعنت بالسباب للتنفيس عن الكرب العظيم المقيم و التلويح بقبضتي للتهديد و الوعيد. أهدد من و أتوعّد من؟غير مهم، المهم أن الفرصة قد لاحت أفأضيعها؟!بت انتظر الليل بفارغ الصبر، و ما أن يحلُّ، حتى أخرج و في جُعبَتي كنزُ أغنياتٍ و سباب و برطمة و رغبة في الانطلاق على السجية لا يُقدّر بثمن. في النهار أفعل كل ما يطلبه النهار أما الليل، فهو الليل، أما الليل فهو لي. أتريّث كل يوم في الطريق إلى الليل، فألقي نظرة احتقار على النهار المُحتضِر و أقول له متشفياً:تستاهل و انطلق خفيفاً كالريشة. أدندن مرة، وألعن مرة و في مرة سمحت لخطواتي أن تتوازن مُتتبعةً إيقاعاً خفياً، فكانت رقصة. مبسوط أربعة و عشرين قيراط و ليس كمثلي بشر. أين هم الآن بأسفلتهم الغبي و بناياتهم الحمقاء؟أتحداهم و أتحدى أبوهم. إذا ما ظهروا فسأعرف كيف أحدّ من تدفقهم الأعمى الشرس. سألفت انتباههم إلى كل صغيرٍ مسالم لا يأبهون به، إلى كل ما يعفصونه و يدهسونه و يتعمدون تجاوزه، سأُسكِتهم عَن بكرة أبيهم، فتلسعهم الضمائر و يتذكرون كلّ ما أخذه منهم الاكتظاظ و التزاحم، ما سقط سهواً و هم يتدفقون على ذلك النحو.

ذات مرة ارتفع صوتي بالسباب في شارع لم يخفّ زحامه بعد فألتفت

شخصان فلوحت بقبضتي في الهواء فرفع واحدُ حاجبيه. أطلقت عقيرتي بالغناء فتوقف بعض العابرون و طيلة رحلتي في شوارع الليل التي سيمحوها النهار كان هناك من يضرب كفاً بكف و من يهزّ رأسه استغراباً و استهجاناً و أناس يقطعون مشوارهم لبرهة من الزمن ليتفرجوا ويبتسموا. و بعد يومين سألني جارٌ قريب إن كنت أعاني من مشكلة ما فلم أنطق. تحدّث طويلاً و قال إن الحياة صعبة فعلاً و أن الجميع متشبثين بقشة الصبر و طلب مني أن أصارحه و أفتح له قلبي فربما يساعدني فلما ظللت ساكتاً ودعني بنظرة غريبة. ما هذا؟من قال لهم أنني مجنون؟هل بدأ النهار في التسلل إلى الليل بعتاده الثقيل الذي يعرف جيداً كيف يسحق و يمحق. هذه سجيتي و قد أطلقتها من عقالها فمالكم أنتم؟

وخرجت ليلاً فأحسست بعيون تترصدني، فهربت إلى أزقة مُقفرة لكن السجية وعت أنها مُراقَبة و مرصودة و أن هدنة الأزقة المقفرة ضربٌ من الشراك ففي أقلّ من لَمح البصر سيهجم عليها من لا عمل له سوى تتبُع السكنات و الحركات و يتربص بها الدوائر و يتحين الفُرص ليطبق عليها بالعَقال كالبعير فانكمشت و توارت في الزنزانة. ناديتها، استعطفتها، استحلفتها، تضرعت و قلت لها أنها آخر ما بقي لي في الدنيا و أنها إذا انتهت انتهيت أنا، فلم تصدر عنها نأمة. يا الله. هل ماتت. أين الدندنة و الهسهسة و رائحة الليمون.

عُدت مهموماً و مغموماً و الأسى ظلي. هل هذا كل نصيبي؟حتى السجية يُقطع الطريق عليها فلا يجد المرء ما يفعله أو يستعين به ليهرب من كل تلك الصرامات. و هل على المرءِ فعل شيءٍ في عَالمٍ كهذا. هكذا هي

هذه التي يسمونها الحياة فما العمل و أين المفرّ. بتّ أَوي إلى الفراش باكراً و لا أنام و أظلُّ طيلة الليل أخططُ للفرار و الطششان حيث لا أُطال. منطقة جبلية مهجورة. جزيرة معزولة في قعر العالم. و بينما كنت غارقاً في التفكير و التخطيط ذات مرةٍ هتف بي هاتف: الفَسحة، الفسحة. في الطرف البعيد. عليك بها عليك. ما من بشر و ما من بيوت و لا ثمة عنكبوت.

و منذ ذلك الهتاف اهتديت إلى الفسحة و فرحت و انشرحت. فسحة واسعة ينتهي عندها العمران و تنطلق منها السجية إلى أعماق الليل. و بفضل الفسحة عدت إلى كل تلك الحركات التي لا أستطيع القيام بها في النهار أو وسط الزحام و زدّت عليها الكثير. في الفسحات الفسيحة تفسحت تَفسُّحاً. على السجية و العالم رهن الإشارة. هنا ما أبعدني عن أوكار الأبالسة. تلك الأوكار التي تستدرجنا إليها الشوارع المتداخلة و الأزقة المتشابكة و تدفق التدفق المُتدفق. أقفز في الهواء ثُمّ أغيِّر اتجاهي دونما سبب واضح لأقف بلا حِراك المدة التي أشاء فلا أجدّ من يحدّق بي و لا يحاسبني أحد و لا تُستدعى الشُرطة للقبض عليّ. على السجية فلا الدندنة مصدر إزعاج و لا مخاطبة الأشباح غير المرئية نوعٌ من الجنون. مارست القفز العالي و الركض مسافات طويلة و قصيرة و الانبطاح و التدحرُج و الهرولة كما و لاكمت جميع الغلاظ الشداد الذي يطبقون على كل سجية تتوق للانطلاق فدحرتهم و شتّتُ شملهم، أصدرت أصواتاً كالعواء و زأرت نكاية بالنهار و ما يعجّ به من أصوات و أمور بغيضة أكثر صفاقة و وقاحة من كل ما قد اقترفه هنا. في الليالي المُقمِرة أتخاطب و القمر و في غيابه أغني للنجوم. أطربها صوتي الأجشّ فأنا ضيف حديقة الليل، غافلت الحُراس و ولجت من الباب المُحرَّم.

و على هذا النحو سارت الأمور. لم يَعدْ شبح الموت إلى مطاردتي و استغرقت في اللعبة فكأن الدنيا خلت من شوارع الإسفلت و البنايات القبيحة و رؤساء العمل و المحطات المُكتظة و النهار الأصلع. و مر الزمن فتخليت عن الركض و القفز و بت أتجول بخطوات قصيرةٍ وقورة و أغني، استنفدت كل ما أعرفه من أُغنيات فانتقلت إلى التأليف و التلحين، فتمايلت الكواكب طرباً و هي تُنصت إلى أعمالي و شالت معي و صفقت لي و لم يحدث أن صادفني أحد، و من يصادفني و الجميع منهمكون كل ذلك الانهماك في التدافع و التدفق، لا أحد يريد التخلف عن الركب، يتدافعون كأنما في انتظارهم جائزة ثمينة أو خاتم سليمان، تباً، كفاية عليّ منصبي الذي لم يُقلدني إياه أحد، أميناً لسرّ الليل، أسرّي عن الموتى وحشة القبر و أهنئهم على رحلتهم التي نأت بهم عن وحشية الحياة.

و ذات يوم ودّعت العمران على طريقة البحر و الساحل و انطلقت صوب الطرف البعيدً. أمضيت الوقت في التسكع باطمئنان و بينما أنا هائمُ على وجهي سارح الفِكر تعثرت قدمي بكوم صلب لم أنتبه إليه و أنا مستغرق في الدندنة و يا لصلابة ما به اصطدمت. وجدتني قبالة أكوام من السيخ و الأسمنت و هي تسدّ الأفق قاسية مثل قاطع طريق عزم على تجريدي من كل ما أملك. بعينين تدربتا على النظر في الظلام و ألفتاه رأيت خيمة حراسة منصوبة في قلب الخلاء الذي كنت أخاله شاسعاً. غير بعيد عن السيخ تكوم الخرصان و الطوب و جبال من أكياس الأسمنت. سيُنشئون البنايات إذاً. ابتعدت و تبيّنت خياماً مُبعثرة هنا و هناك حواليها السيخ و الأسمنت و بجوفها من يلغطون و يُعدّون الشاي. سيتمُّ تجريدي مما أملك و ما لا أملك و

ما حلمْت أن أملك. هنا سرعان ما ستنشأ شوارع تجري فيها العربات التي ستعبرِ ظلال البنايات و هي تسد الأفق و يتدفق الناس إلى الأوكار.

و الآن ما العمل؟انتابني دوارٌ فمشيت. سأمشي و أمشي حتى أبلغ مكاناً لا يُطال. غير معقول أن يخلو هذا الكوكب من متر مربع تنطلق فيه السجية على سجيتها.

وصمةُ عطرٍ

أمضيتُ ليلةً أخرى في التصنّت لأصوات الليل. لا شئ سوى الريح. تأتي الوشوشات من الغرب و هي تأتي من السافل و الصعيد و من جهة القبلة و تُشِّط الظلام تمشيطاً حتى أغفو و عندما أصحو فإن السبب يكون أحياناً لسعة البرد في الفجر أو حرارة الشمس و قد ارتفعت قليلاً أو هو نداء الضمير، يوقظني و يذكّرني بالعمل الذي لا مفرّ منه.

لي مدة من الزمن و أنا أقيم وسط هذه الخرابات المهجورة. الجيران مني على مبعدة، لا ألتقي بهم، لا أسمع أصواتهم و الريح هي صديقي الصدوق. ليس لديّ الكثير لأفعله. أذهب إلى العمل و أعود من العمل. انتظر صلاحِ الأحوال و حتى إذا صلحت فالأكيد هو أن نصيبي من الصلاحِ سيأتي قليلاً. نصيبي من الليل و النهار قليل و رضيت به و سكتّ علامةً على الرضا.

تركت البيت عقب سنوات من الحرج المتواصل. كان البيت صغيراً و كان يخنقنا كل يوم، و بوصفي الابن الأكبر في أسرة بأب ميت و أم طيبة و أخوة صغار، كانت تقع على كاهلي مسؤولية جسيمة. بذلت ما بوسعي لكن الأحوال ظلت تسوء باستمرار و تسلحت بالصمت و بالصبر، لكن عندما

كانت نظراتي تلتقي بنظراتهم، بنظرات الأم بالذات كنت أحسّ بنفسي مُذنباً و مُقَصِراً. أنام مُنقبض الصدر، أصحو و أنا منقبض، و في صباح سابح في الغباش، نظرت أمي في عيني و نظرت في عينيها. لم تقل شيئاً و ما قلتُ.

خرجتُ و لم أعد. بذلت جهداً عظيماً حتى يطويني النسيان قبل أن ارتاح إلى ذلك الركن المهمل من العالم الذي فررت إليه. ما من أخطار كثيرة تتهددني الآن. بوجبة واحدة أُقيم أودي و أتجنب الاختلاط بالناس و أعود مُتأخراً، مُتخيراً دروباً مُقفرة. الخطر الوحيد هو نداء الضمير، وخزه يوقظني في قلب الظلام و يكاد يرديني قتيلا. كنت أقول لنفسي إن في البقاء بعيداً هكذا نجاة، لا شئ يعنيني، لا أحد يطلب مني شيئاً و لا أطلب من أحد شيئاً، و عندما يشتد عذاب الضمير و صياحه فإنني كنت استجير بالنجوم و أتشبث بضيائها الخافت فلا تدلني على مكان و لا تتبرع بنصح، فقط تُوقع رسائلها على السماء كل ليلة فيتضاعف ضياعي و قلة فهمي و استغرق في تأملها كالأبله ثم أشرع في استجداء النوم فيبعد فأبدأ في استقبال رسائل الريح. رسائل الريح أسهل من رسائل النجوم و يمكنني إدعاء فهمها أما رسائل النجوم، فهي ألغاز و كُوى مفتوحة على متاهات.

في تلك الليلة التي تلقيت فيها الضربات عدت إلى ركني باكراً و تمددت على الفراش. أخذت الريح تحمل الأصوات و تروح بها و تجئ. وجادت فحملت الروائح أيضاً. حملت عطراً أحسست معه أن حياتي ستنقلب رأساً على عقب. عطر الأنوثة الذي يُعدُّ خصيصاً لليل حملته الريح إلى وكري فارتعشت جدران الخرابة. تنسّمت العطر و شربته فبان لي كم أنا وحيد و

بعيد عن العالم. ثم وصلتني الأصوات التي لم أتبينها جيداً في بادئ الأمر و لكن أصختُ السمع فإذا هي نصالٌ تتبارز و الظلام. صوت كالكرباج لأنثى تشكو و تستعطف و تستزيد. غمغمة ثم وحوحة فاسترحامات تضج بالغنج ثم لهاث ثقيل أولاً فمتسارع، فثقيل مرة أخرى و أنين كالإنشاد ثم صرخة كالصهيل ثم زفير حار. انكمشتُ حيث أنا في هيئة من سيتلقى ضربة قاضية مجهولة المصدر أو كمن ستسقط عليه السماء وظللت ساكناً و مُرهِفاً سمعي فلم تبلغ أذني غير وشوشات الريح. مضي الليل و لم تعاود تلك الأصوات غنائها فقمت متلصصاً و التصقت بالحائط على اعتبار أنها لا يمكن أن تأتي من مكان أبعد من الخرابة المجاورة. ظلّ الليل ثقيلاً، حالك السواد، و ظل فحماً لا يشتعل.

صبرت حتى الليلة التالية و تمددت كما الأمس مُنتظراً وصول الأصوات و طال انتظاري بلا جدوى. و لليالٍ طوال، تلت تلك الليلة ظللت أترقب و أتنصت بلا نتيجة. هل كنت أحلم؟و لكن هل يُعقل أن تتسلل العطور إلى الأحلام؟تلك الأصوات قلبت حياتي و أفسدت عليّ هروبي الذي خططت له أن يكون أبدياً و بلا رجعة. كنت قد قررت قطع كل ما من شأنه أن يربطني بالعالم على نحو جدي، و ما أن استرخيت و انغمست في الأمر بإخلاص حتى جاءت الأصوات.

و بعد أسبوع لم أطق صبراً فجازفت و تلصصت عليهما. نظرت من فوق الحائط فاستقبلني الفناء الخَرِب بشجرة عُشر يابسة لا تهتزّ مع الريح. عدت إلى الفراش و جسدي يرتجف من الحمى. كيف يمكن أن تصدر تلك

الأصوات عن خرابة مهجورة. أطلت السهر و الانتظار و بدا الظلام متآمراً مع الريح فلم تصدر نأمة فقاومت الحمى و قمت، خرجت في حلكة الليل. تجولت بلا هدي و كنت التصق بحوائط البيوت و أرهف سمعي و خلف جدار أحد البيوت تناهت إلى سمعي همسات واهنة فكففت عن الحركة ريثما أتبين مصدرها و ما أن تمّ ذلك حتى اندفعت صوب الجدار الذي خلفه الصوت. كانت هناك أنثى تقول: كفاني يا فلان، كان صوتها بين الغناء و بين البكاء فجمد الدم في عروقي و أقعيت أسفل الجدار. توقف الهمس و ساد صمت ثقيل. تململت حيث أنا و كدت أغادر لكنني سمعت ما يشبه الأنين يأتي من بعيد، وتنسمتُ ما يشبه العطر يأتي من أبعد. درت حول الدار مُقدِّرا أنهما في الجزء الخلفي. بعُد الأنين و معه العطر وصارا وسنانين و واهيين، أوهى من ارتعاش مُحتضِر.

غادرت الموقع مقشعراً و محموماً و لم يكن الليل حاراً و لا بارداً، الحرارة و البرودة تتناوبان حراسته، وكان في قلبي حرٌّ و قُرّ، و في روحي ندبة قديمة لن تتركني أنام أو أهرب أو أهدأ، وتجعلني أتخيل الأصوات التي يتخفىّ لها الناس و عندما خُيِّل إلى أن صوتاً يأتي من وراء أحد الجدران اندفعت صوبه و لم أتردد في تسلُّقه فاسُتقُبلت بصرخةٍ مُدوية، و سقطت لا أعرف هل خارجاً، أم داخلاً و هوت عصا على رأسي و حصل ضجيجٌ و عجيج أحالا الليل نهارا و تلقيت الضربات و أنا أشعر بالنُعاس و قبل أن أغيب وصلتني همسة العطر رغم كل الأصوات و الزحام.

كانت الشمس حارةً عندما صحوت. على ثيابي يبس الدم، وكان

جسدي يعجّ بالألم. هل أنا مطعون أسفل الكلية أم أن كرباجاً ألهب ظهري و خلّف قروحاً لا برء منها. لم أفلح في النهوض و لم يلق أحد بالاً إليّ. همس عطرُ بعيد فجنّ جنوني و كابدت حتى انهض و ألحق به لكنه تلاشى و ظللت حيث أنا جاهلٌ بما سيحلّ بي.

هندسة غير مستوية

للمرةِ الأولى و منذ سنوات أتت العاشرة صباحاً و صادفت الأستاذ عدلان في البيت، ليس في البيت فقط، بل على الفراش. حقيقة الأمر أنه استيقظ في الموعد المعتاد لكنه فضّل التظاهر بالنوم حتى لا تواجهه نظرات أمه و أختيه، تلك النظرات القَلِقة و الحزينة التي ظلت مُعلّقة به و متتبعة له في كل سَكنة و حركة منذ مصارحته لهم ــ بعد ترددٍ لم يطل ــ أنه دخل في إجازةٍ قد تطول. لم يبد عليهن الارتياح لأن إجازاتِ المدارس الخاصة يابسة و تعنيِ دخول الراتب في إجازةٍ أيضاً و واقع الحال الرقيق لا يحتمل وَضعاً كهذا، سيما و أنها قد تطول.

و ما الذي ليس في إجازة؟ودّ عدلان لو أنه كان أكثر صراحة و لو أنه طلب منهن منح أحلامهن الصغيرة إجازات لا نهاية لها. أحلامهن؟أهي أحلام؟أو ليست مطالب أساسية لا غنى عنها لكل إنسان، أليست هي التي يطلقون عليها الحاجات الأساسية كلما دار الحديث عن رفع المعاناة عن كاهل الشعب في التلفزيون؟حلم الانتقال من البيت المؤجّر إلى بيت يمتلكه ابن آدم بموجب صك يبعث الطمأنينة في النفس كان صعباً و بات مُستحيلاً بعد الدخول في الإجازة التي قد تطول. حلم الوصول إلى بنت حلال يُكمل معها الواحد نصف دينه صار أسهل منه رؤيته شحمة أذنه. كله كوم و تأمين المصاريف

اليومية لـ(حلة الملاح)كوم. كان الأمر معادلة رياضية صعبة تعلّم عدلان مع مرور الأيام و بمساعدة راتب مدرسة الكفاح الخاصة كيف يصل إلى إجابات تقريبية لحلها و لكن منذ الآن فصاعداً ستجابهه كمعضلة تقف كل المدارس الفلسفية حيالها حائرة ومبهوتة. و الوعد الذي قطعه لأمه بتحقيق حلمها القديم في الوصول إلى البيت الحرام و التعلق بأستار الكعبة ما مصيره؟

عدلان متمدد الآن و المعادلات الفيثاغورسية و الأقليدية تحاصره وتسخر من قصص التاريخ التي حشا به رأسه تمهيدا لحشو رؤوس الطلاب بها بعد التخرج، كلها معادلات صعبة و صلبة و صلدة، معادلات واثقة من نفسها و معتدة بتعذرها على الحل، تسلطت على المُعلِّم المتناوم ، التعبان الكحيان الذي ضاع حلمه في الحصول على الماجستير ثم الدكتوراه و التبحُّر في التاريخ، ضاع الحلم عقب رحيل والده و غرق في بحر المسؤولية. ترحّم عدلان على أبيه مُتذكِرا وجهه المُتعب جالساً على التبروقة عقب الغروب نصف صاح نصف نائم و هو يتمتم مُسبِّحاً وشددّ من إغماض عينيه مُسترجِعاً حلم والدهً المدفون في التعلق بأستار الكعبة و هو الحلم الذي لم يُصرّح به بتاتاً و لكنه كان يطلّ من عينيه و يسيل مع ارتعاشات صوته عندما يفرغ لتلاوة القرآن بصوتٍ نَدِي.

أحسّ بشخصٍ يقترب منه و يربِّت عليه برفق.

ليت الأرض تنشق وتبتلعه. فتح عينيه ببطء. وجه أمه صفحة عليها تاريخ من الحزن و خيبة الأمل، لكن الطيبة المُطِلّة مع الأسى لم يُفلح الفقر و لا الخوف الدائم من المجهول في محوها. تبادلا نظرة ممتدة و طويلة و حارة لا

يذكر عدلان أنه تبادلها مع شخص من قبل ولم ينطق أحدهما بحرف. غادر البيت لا يعرف إلى أين. ستكون الإجازة قاسية، كلها معادلات و معضلات ، لكن من قال أنها إجازة؟الذي اسماها كذلك هو مدير المدرسة الخاصة. استدعاه إلى غرفة الإدارة التي لا يذكر أنه دخلها كثيراً و سلمه مظروفاً صغيراً قبل أن يطلب منه الخلود إلى الراحة في الفترة المُقبلة لأنّ مُتدرباً مبعوثاً من كلية التربية سيستلم الجدول و ابتسم المدير و هو يقول أنها فرصة طيبة لاتخاذ خطوات عملية باتجاه الحصول على الماجستير و طمأنه بأنهم سيرسلون في طلبه حالما تنقضي فترة التدريب. لم يرد على الابتسامة بمثلها لأنه يعلم تمام العلم أن هذا المدير تاجر مخاتل، لا يهمه أن يتدرب أحد أو لا يتدرب ، أن ينال أحد الماجستير أو لا يناله بل كل تركيزه مُنصب على التخلص منه قبل نهاية العام حتى لا تكون هناك أي التزامات مادية تجاهه كما ينص العقد و منذ قدومه إلى المدرسة كان يعرف أن هذا هو المصير المحتوم الذي ينتظر و يتهدد أكثر المعلمين الذين يعملون في المدرسة الخاصة، لكنه قبل به لانعدام الخيارات و لأن التوظيف في مدارس الحكومة مُعلّق كما تنص على ذلك الخُطة العشرية التي قد يستغرق تنفيذها مائة عام.

ثم أنه مُدرِّس تاريخ و عليه أن يقبل بأي شئ حتى لا يموت و أمه و أختاه جوعاً أو تشرُّداً أو كمداً أو هماً أو غماً.

يذكر أنه لم يُودِّع المدير، وترك المظروف على الطاولة لكنه قَبله عندما لحق به الساعي مُلوِّحاً:نسيت هذا. مظروف آخر المُستحقات. مظروف نحيل، لا يُسمن و لا يُغني من جوع و هو لعين مثل رسالة وداع يتلقاها

محكوم بالإعدام.

أطال تسكعه و عندما تسللِ التعب إلى جسده أسند ظهره إلى أقرب جدارٍ صادفه. أغمض عينيه مُحاولاً و للمرة الألف طرد المعادلات و المُعضلاتِ الشوكية. تناهى إلى سمعه صوت صغار يلعبون. فتح عينيه و شرع يتابعهم و هم يطاردون كرة صغيرة، قفزت و حطت بين قدميه. لم يتحركوا بل صوبوا أبصارهم تجاهه. بادلهم النظر و لم يتحرك. لوَّح أحدهم بيده الصغيرة:هيا. اندفع بالكرة إلى ساحة اللعب. هلل الصغار مُشجِّعين. مرر الكرة إلى أحدهم فأعادها إليه.

هجم عليه مُدافِعٍ فتخلّص منه بحركةٍ ظنّ أنه نسيها. صفق الصغار و زاطوا. واصلَ اللعب بهمةٍ و نشاط و لأول مرةٍ، منذ زمن بعيد تنفَّست مسام في جسده و روحه خال أنها انسدت.

كلُّ مَنْ يشبِه الحبيبُ، حبيب

عاد كل شئ إلى ما كان عليه لكنني استمسكت بالحضور إلى المحطة في الموعد نفسه كل يوم علّ الأمر يتكرر. كانت ليلة في غاية الغرابة. وصلت إلى المحطة متسائلاً أينَ ذهب الناس؟منذ مغادرتي مقر عملي و حتى وصولي لم أقابل إلا قلّة من البشر. ما لفت نظري ليس قلتهم فقط بل الصورة التي ظهروا بها لعيني. في الجو نفحةُ طيبة من المرح و الخطوات أقل تعباً وتثاقلاً من المعتاد و البِشر يلمع في العيون. اللهم أجعله خيراً. الأغرب من هذا كله أنني لم أجرجر ساقيّ كما هو حالي كل ليلة، بل تقدمت واثقاً و متماسكاً، نافضاً الغبار عن شبابي المدفون و الرماد عن جمرة البهجة، ممشوق القامة مثل عريس ليلة تتويجه، و غادرتني سِحنة الموظف الكحيان الذي ينؤ كاهله بالديون و تحاصره الهموم. خُيّل إلي أن نوراً غير ضوء مصابيح الطريق يملأ الدنيا، و بدا العالم مسالماً و قد تخفف من أعبائه و غبائه و دفعني ذلك إلى التمادي في الثقة ببركة الليلة إلى درجة توهمي إمكانية دخول مركز الشرطة و الإفراج عن النشالين القابعين خلف السياج دون أن يخسر العالم شيئاً. ها هو العالم يتوضأ بالضياء و ها أنذا أسمع تكبيرة الإحرام تصدع بها الكواكب البعيدة و النجوم و لم يتململ الإسفلت كعادته سأماً و لم تتسابق المركبات بل تهادت متتابعة و تسلل لحنٌ طريف كأنما أُعِدّ خصيصاً لمساء كهذا لا أذكر

أنني سمعته من قبل، و داعبني عبيرٌ ناعس شرح صدري و أراح أعصابي المشدودة.

لبرهة قصيرة، خطر لي أنني أحلم لا أكثر و لا أقل، لا بل أنا أشتط في الخيال و أتعلق بأهداب شطحات مجنونة، فأين هي المحطة البائسة من حُسن الهندام، و أين هو العالم من السلام؟لكن حتى هذه الأفكار الإعتراضية السوداء، التي لم تجد عناء يُذكر في التسلل إلي وعي أحتله إيمان قاطع باستحالة تحقُق الصفاء، لكثرة ما عكرته الخطوب اليومية الصغيرة، اندحرت و لملمت فلولها على عجل لتترك بالي مرتاحاً و متواطئاً مع الليلة الواعِدة، و قد تحقق الوعد في لمح البصر.

لمحتها تحت المصباح و في وقفتها طمأنينة من لم يرهقه الماضي و لا يلوح له المستقبل حِفنة أخطار مُبهمة. أخذت أملأ عيني منها و هي ساهية لاهية، مُتناسياً الوعد الذي قطعته على نفسي بأن أُدير ظهري للنساء و كل ما يخصُّ النساء بسبب التجربة الخطيرة التي خضتها معهن، بل مع واحدة منهن تشبهها. و تأخّر الباص و لم يقطع تأملي المبهوت و أخيراً، عندما وصل التفتت

صوبي و ابتسمت ثمّ لوّحت بيدها مُودِّعة قبل صعودها. تلك التي تشبهها كانت تودعني بالطريقة نفسها.

حلوة و سمراء، تتقمص شقاوة مذيعات الفضائيات. ظلت علاقتنا كأحلى ما يكون، إلى أن اختفت فترة من الزمن، لأفاجأ بعدها بزفافها و

سفرها لقضاء شهر العسل في الخارج. ذلك يوم لن أنساه. ذهبت لأنها اكتشفت موهبتها الكبيرة لإسالة لعاب الرجال، تلك الموهبة التي لا ينبغي تضييعها مع موظف كحيان. حصلتْ على زوج و حصلت أنا على شاكوش مُعتبر حتّ صمغة رأسي و بعده حصلتُ على ترقية تافهة و أخذت الأيام تتشابه و أنا أحنّ إلى ابتسامتها العذبة و هي تُلوِّح مودعة. كل الشعر الذي شربته و الروايات التي دفنت أحزاني في تفاصيلها لم تُفلح في مسحها بوصفها أمر لا مفرّ منه.

لقد راح كل حي إلى سبيله فماذا تريد الآن؟أريد حُباً يُخفف وطأة تشابه الأيام. يا لك من متناقض، و قرارة الإدارة كيف تنساه. لا عليك ذلك حيلة العاجز الذي يقنع بأنه ما له في الطيب نصيب. يا لك من متناقض، كيف تريد و تدير في وقت واحد؟!الآن دعك من هذا كله، ألم تُلوِّح؛، ألم تبتسم؟و هذه الليلة المُباركة، ماذا أنت فاعلٌ بشأنها؟لماذا تبدو مباركة إلى هذا الحد؟و لكن هل بمقدور امرأة فعل كل هذا؟!

احتلّ ذلك العمود مكانة خاصة في حياتي. عند هبوط المساء كل ليلة أدور حوله و أتمسح به و أفوِّت الباصات على أمل أن تبزغ مرة أخرى لتمسح دموع القلب. عاد كل إلى ما كان عليه، البشر يتدافعون بالمناكب و الغبار ينعقد في الفضاء و الأيام متشابهة، لكن الجِراح التي استيقظت من غفوتها تتململ. لماذا لا تشرق مرة أخرى ليكفّ ما حولي عن الاستغراق في الحماقة و اللامبالاة؟روحي تهفو إلى طلعتها البهية و خيالي كله ترقُّبٌ و انتظار. لكنها ليست هي بل واحدة تشبهها. فليكن. كل من يشبه الحبيب، حبيب. و

لكن لم هذا التفاني و قد باعت بثمن بخس. لا بأس، لا بد إن لديها من الأعذار ما يكفي ليجعلها تتخلى عني بتلك الطريقة التقليدية الممجوجة، ثم أنها الوحيدة القادرة على بث الربيع في قِفار العمر المُجدب بنظرة و ابتسامة و تلويحة، فقط.

فاكهة مُهملة

دفترها سبب لي الأرق، و فتح نافذة الهواجس و الشكوك عن آخرها، و بعد أن هدأت الدوامة توطدت علاقتي بها عن طريقه و بتُّ أعود إليه عند كل بادرة تذكرني بها أو تذكرني بجهلي. ذلك الدفتر عندما رأيته يطلّ من تحت الوسادة لم يُثر في نفسي شيئاً أول الأمر، لكن بعد حين صعقني مرأى القلب و قفزت إلى ذهني عبارة كيدهن و أسأت الظن به غاية الإساءة و ظللت متردداً لا أقوى على فتحه لمدة من الزمن و عندما حسمتُ الأمر و وجدت الشجاعة للتجول في صفحاته، تبيّن لي عظم المسافة.

حادث الدفتر كان هو الأبرز في إجازتي السنوية، و لقلة الحوادث البارزة في مُجمل حياتي فقد أحطته بكثير من الاهتمام. في أول يوم من تلك الإجازة استقبلت الصباح مُمدداً على الفِراش و ما رغبت في النهوض و أمضيت الوقت طافياً في الفراغ لرمادي المنسوج من حولي بإحكام و في ركن من عقلي رأيت أن تلك بداية لا تتناسب و الحماس الذي دفعني لطلبها فبدلاً من القفز من السرير ها أنذا أفتتحها لوحاً من خشب، لا أعرف ما سأفعله بيومي هذا و لا ببقية الأيام الآتية. استعرضت الخيارات التي أدرتها في ذهني بالأمس فرجحت كفة البقاء حيث أنا على كفة الخروج. ظننت أنها فرصة طيبة للتصالح مع القراءة التي ساءت علاقتي بها منذ أن التهمتني

الوظيفة و بعد أن استحوذ الكد من أجل تكوين نفسي للزواج على كل طاقتي. تدهورت علاقتي بالقراءة لكنني سعيت لاقتناء الكتب ما وسعني الجهد و اجتمعت لدي ثروة لا بأس بها خصصت لها خزانة خشبية بائسة في غرفتي. أكثر شيء شجعني على مواصلة هواية الاقتناء، شغف أختي الصغرى بالقراءة و تعلقها بها. كنت أجلب الكتاب فتتلقفه بحبور و أكثر ما كان يسرني الطريقة التي تُعامل بها الكُتب وهي الطريقة التي أظنّ أن الناس عاملوا بها المصابيح قبل أن يعرفوا الكهرباء. نهضت و اغتسلت و بينما احتسي الشاي قلبت في ذهني العناوين المتوفرة لدي و عندما استقر الرأي على مُجلّد للشعر و الحكمة توجهت إلى الخزانة و أخذت أتحسس الكتب مُمنياً النفس بالاغتسال من وعثاء الجري اليومي وراء الرزق و الاستعداد بالعتاد اللازم لمنازلة بنت الحلال و أهلها إلى آخر ما في تلك القائمة التي تجلب الهم و لا تدعني لشأني إلا لِماما. لم أعثر على المُجلّد فتوجهت إلى غرفتها المُوصدة مُنذ زواجها و سفرها مع زوجها طلباً لسعة الرزق وراء البحار. دفعت الباب و دخلت. لم أُشعل المصباح و فضلّت البقاء في العتمة المتأتية من إسدال ستائر مُرتجلة على النوافذ الموصدة و جلست أتنشق عبيراً خافتاً خلّفته المهاجرة. منحني الجو المُسيطر على المكان إحساساً بالانفصال عن العالم و أغمضت عينيّ حتى لا يهرب ذلك الإحساس و خالجني الشعور أنني على موعد مع طرائف ثمينة و صغيرة نادراً ما يأبه الناس بها في زحمة الحياة.

ثمّ قمت أبحث عن الكتاب و في نيتي مطالعته في تلك الأجواء حتى احتفظ بدفء الإحساس الذي غمرني و أشاع في نفسي الطمأنينة و أبعدني قليلاً عن شبكة البؤس التي تربصت بي و بإجازتي. الكتب مصفوفة على

نحو ينمّ عن رهافة حسّ من شغل المكان و خشيت أن أفسد النظام و الأناقة فنكصت عن فتح الخزانة و عدت إلى الكتب القليلة على الطاولة فلم أجد المجلد. ترددت قليلاً ثم أشعلت المصباح. لم تخذلني الغرفة الصغيرة بل بان لي أنها سترت في الظلام نوعاً من الجمال يُصيبك بالحزن عندما تطالعه في النور. كنت في أمسّ الحاجة للانغماس في عوالم كالتي تختبئ في مثل هذه الأماكن المنسية، بعد أن خشبتني المسؤوليات الحمقاء و جففت الهواجس الرخيصة منابع الاحتفاء بالإشراقات غير المُنتَظَرة في الحياة فاسترخيت في جلستي و شرعت أدندن بلحن قديم شُغفت به منذ أيام الدراسة. عندما وقع نظري عليه لم أتوجس لكن عندما تناولته و فتحت صفحته الأولى تجمدت و أنا أرى اسم أختي داخل قلبٍ، أسفل رسم لقلب آخر مُخترَق بسهم. إذن تلك هي المفاجأة التي ستنغص إجازتي و تنتزعني مما كنت سابحاً فيه قبل لحيظات. أغلقت الصفحة و شرعت أحدّق في الغلاف الرمادي. لم استبشر خيراً و ركبني الهم و استولى على الإحساس بأنني مغفل كبير، و ساذج من طراز رفيع، فالبنت كانت تختبئ هنا و قلبها يخترقه السهم، بينما نحن في غفلة من أمرنا نظن أن الأمور على أحسن ما يُرام. البنت أي بنت، لا تجرؤ على وضع اسمها داخل قلب، و لا تحتفي بالقلوب التي تخترقها السِهام ما لم يكن في الأمر إنة.

أعدت الدفتر إلي مكانه وغادرت الغرفة. أتت الوالدة من السوق و سألتني إذا ما كنت سأخرج، أم سأفطر، فأجبتها بهمهمات جعلتها تهزّ رأسها و تتركني لحالي. قلق عارم اكتسحني و جعلني لا أقوى على البقاء في مكان واحد. لاحظت أمي ما بي فطلبت مني الخروج، وقالت إن الإنسان

عندما يقضي أغلب وقته في الخارج يحسّ أن البيت زنزانة، و سألت الله أن يوفقني و يجمعني ببنت الحلال قريباً.

خرجت و أمضيت النهار في التسكع و تصادف أن مررت بمجمّع مدارس مع نهاية اليوم الدراسي. عشرات السيارات تبتلع الطالبات و شبان يطلّ من عيونهم السفه يتسكعون بخطوات بطيئة و ينفثون الدخان. هل هذا ما يحملّهن على الاحتفاظ بمثل تلك الدفاتر و رسم القلوب المُخترَقة؟لماذا لم أنتبه من قبل إلى أن أختي مُعرَّضة لكل ما يتعرّضن له عند نهاية كل يوم دراسي؟و لكن ما دخل هذا بالدفتر؟هل نحاكم الناس على وضع أسماءهمً داخل قلوب، و هل نوجّه لهم أصابع الاتهام لمجرد أنهم احتفوا بالرمز الخالد للحب؟لكن مهلاً، تلك البنت لم تحتفظ بمثل ذلك الدفتر للاشيء. لا بد أنها ألصقت صور نجوم الغناء و التمثيل، و سجّلت خواطرها بشأن الحب و الغرام و ما لا أدري بأسلوب ركيك يتلمّس به البشر أول خطواتهم صوب الحب عادةً. و الأنكى من ذلك أنها قد تكون سجّلت ما يجيش بنفسها تجاه فارس أحلامها. تباً أنني كالأحمق و قد نجح دفترها في فتح نوافذ مُزعِجة لم تكن في الحسبان. لكن إذا كان بالدفتر ما تخشاه لما تركته هكذا. يجوز أنها لم تشأ حمله معها إلى عُشِّ الزوجية حتى لا يجرّ عليها المشاكل و ربما هي نسيته في زحمة الإعداد للسفر. لعنتها و عدت أدراجي و في قرارة نفسي أخذ خوفي مما قد يكشفه الإطلاع على تلك الصفحات يصطرع مع رغبتي في تكوين رأي محدد بعد الإطلاع.

عدت فاستقبلتني أمي بوجهٍ يفيض بِشراً و بادرتني بالقول أن أختي

اتصلت و هي تُسلِّم علي و أضافت أنها بعثت حوالة مالية لأستعين بها على تكاليف الزواج المُقبِل. قطبت جبيني و طبعاً فتحت أمي فمها لتنطق مبدية استغرابها من البرود الذي استقبلت به الخبر، لكنني أخبرتها بصوت مُتحشرج أنني مُتعَب و بحاجة للنوم. حاولت الاسترخاء و تناسي أمر الدفتر لكن الأفكار المُزعجة نشطت و أخذت تهجم علي من كل حدبٍ و صوب. و ذهبت إلى أن إرسالها للحوالة المتزامن مع وضعي قدمي على أول عتبات السلّم الذي سأنزل منه إلى قبو أسرارها ينطوي على دلالة غير مُريحة و سخرية مني، فأكون بذلك كمن يستلم ثمن سكوته على أمرٍ لا يمكن السكوت عنه. يجب أن أضع حدّاً لكل هذا. فكرت في التخلص من الدفتر ثم رأيت أن القيام بذلك سيُضيِّع وثيقة مهمة تكشف كيف أن البنات يغافلن أهلهن فيُمضينْ أيامهن وسط العائلة بينما حياتهن الحقة بمكان آخر. و فكرت في قطع الإجازة و العودة إلى العمل و الانغماس فيه و التخبط في معركة الإعداد للزواج فأدير بذلك ظهري لكل شئ. لكن الدفتر سيظل قابعاً لا في الغرفة فحسب بل في زوايا عقلي و تلافيف أفكاري ليقضّ مضجعي و يشيع الارتباك و الاضطراب في حياتي التي لا ينقصها شئ منهما. الأسلم مواجهة الأمر و ليكن ما يكون.

انتظرت حلول الظلام و انشغال الجماعة بالتلفزيون و تسللت إلى الغرفة تسلُّلَ من ينوي سرقة النار قبل تعلُّمه اتقاء الحريق. بدا لي أن الغرفة سعيدةً بالليل الذي يلفها. لها نكهة الثمار المنسية، لكن هذه المرة قررت أن لا أُضيِّع الوقت في التأمُّل و استقبال الذبذبات التي تنبعث من الكهف ففي قرارة نفسي عزمتُ على ألا أسمح للغرفة بخداعي ثانية، كما أن ما أنا مُقبِل عليه

لا يقبل التسامح و إضاعة الوقت في كلام فارغ جلُّه أوهام و أضغاث أحلام. ضغطت على ذرّ المصباح بيد مرتجفة كمنٍ يسحب التأمين عن قنبلة شديدة الانفجار و توجهت صوب الدفتر مُبسملاً و محوقلاً و مُستعيذا بالله من الشرّ الكامن في صفحاته. تصبب العرق مني و أنا أمسك به و خُيِّل إلى أنه كان ينبض بين كفيّ.

يبدو أنني لم ألق بالاً لمرور الوقت لاستغراقي بجميع حواسي في القراءة و لم انتبه إلى أن أمي واقفة إزائي و هي تضرب كفاً بكف اندهاشاً و امتعاضا إلا بعد أن نطقت.

■ ناديناك للعشاء و لم تُجب.

-لا عليك يا أمي، كنت اتسامر مع أختي.

حملت الدفتر إلى غرفتي و تابعت القراءة إلى ما قبل تسلل الخيط الأبيض بقليل. عندما صحوت كان النهار قد انتصف، لم أنم بمثل هذا العُمق منذ زمن طويل. الدفتر إلى جواري. حملته و تحسسته لأتأكد من أنه حقيقي و إنني ما كنت أحلم. سجّلتْ أختي يومياتها بأكبر قدرٍ من الحرص و الأناقة ثم الصدق بعد ذلك و قبله. مُنظّمة حتى و هي تشكو القمع و الإهمال و إساءة الفهم. القمع الناعم. ذلك ما وصفت يه مُجمَل مواقفنا و ردود أفعالنا تجاه تصرفاتها نحن أخوتها الكبار و والدها. و لكنها أبانت أن القمع يتحول إلى صخرة صماء في بعض الأحايين. حكت في بضع صفحات كيف أنها أستأذنت للسفر مع فريقها مدرستها المُشارك في أنشطة الدورة الثقافية لتساهم

في مسابقة الإلقاء الشعري، فوصفت تجاهلنا للأمر عندما صرّحت برغبتها في السفر و كيف أننا استأسدنا و زأرنا بوجهها عندما عادت و ألحت في الطلب.

أكثر الصفحات إمتاعاً تلك التي تحكي فيها قصة زواجها.

الشاب الذي طاردها مُتخرِج حديثاً و والده الذي يعمل بالخارج بعث له بعقد عمل. سيارته كانت لا تغيب عن شارع مدرستها إلا نادراً. جنّد بعض زميلاتها اللائي يسكنّ في الجوار لإقناعها باللقاء به على انفراد. بيته لا يبعد عنّا كثيراً. على خُلق لكنه لن يُضيِّع الفرصة إن لمس من بنت ما تهاوناً. وسيم و أحست أن مطاردته لها و إن بدأت بنية الشروع في علاقة مجانية لا تُكلّفه سوى الذهاب بها إلى مكان بعيد بسيارته إلا أنها لم تستمر على ذلك النحو و ذلك هو المطلوب. فاجأها بأن جاء مع أمه و أختيه مُحملاً بالهدايا و طلب يدها من الوالد مباشرة. جرت الأمور على النحو الذي تجري عليه في مثل هذه الأحوال. تشاور الجماعة و تقصّوا الأخبار عنه. الغريب أن أحداً لم يسألها شيئاً طيلة فترة التقصّي و التشاور. كأن الموضوع لا يعنيها. كانت قد درست المسألة و اتخذت قرارها. بعد حين جاءوا و سألوها رأيها. خفضت بصرها و لم تقل شيئاً. زغردت أمها.

و الدراسة؟و من يهتم لذلك ما دام العريس لقطة. إنها تعيش في عالم لقطة و لن تخسر الكثير ما دام هناك رجل سيهتم لأمرها بطريقة تختلف عنّ التي درجنا عليها نحن. ذلك ما قالته بالحرف الواحد على صفحات دفترها. كانت مُتَخوِفة من فكرة السفر، لكن الشاب المُتلّهف للعيش معها نجح في القضاء على مخاوفها. في سطور أخرى أشارت إلى ضيقها الشديد من خوفنا

عليها. صحيح أنها البنت الوحيدة و أن السقوط اليومي للبنات في فِخاخ الشقق و السيارات، صار من المخاطر الغامضة التي يعمل لها الأهل ألف حساب، لكنها لا تجد في نفسها ميلاً لدور البنت التي تغافل أهلها و ربما تنتقم منهم بالتمرغ في الوحل. تلك هي عباراتها كما وردت في الدفتر. و كتبت :إن خوفنا المُسرِف عليها ما هو إلا خوف على أنفسنا لا يمكننا تبريره مهما فعلنا فهي لم تجد في نفسها ميلاً إلى مطاردة التقليعات و آخر الصيحات و الصرعات ليس خوفاً منا و لكن حتى لا تبدو كالمُهرج كما هو حال كثير من زميلاتها.

و لكن لماذا رسمت القلب و جعلت السهم يخترقه؟ذلك السهم جعلني أتعامل مع الموضوع بحدة و أتعامى عن كل تاريخها النظيف بين ظهرانينا و أيقظ في نفسي ذلك الاستنفار البدائي لطاقات الشر و العدوان عندما يتعلّق الأمر بمسائل الشرف و ما إلى ذلك. لا معنى لأن أظلمها بشأن رسم و ينبغي الاعتراف بأنني عندما كنت في المرحلة الثانوية ما كان بمقدوري التّعبير عن نفسي و تأمل ما حولي على النحو الذي قامت به و ربما ما زلت كذلك و قد جاوزتُ الثلاثين. ثمّ و أنها عرفت على صغر سنِّها كيف تقرأ ما يحيط بها بنظرٍ ثاقب و ربما أرادت القول إنها تفارقنا لنلتقي بها في مكان آخر، و هذا ما حدث، فكأن الدفتر رسالة تقول لنا أننا لم نعرفها كما يجب.

قررت بيني و بين نفسي سؤالها في الاتصال القادم عن الأشعار التي كانت تواظب على حِفظها و أن أطلب منها أن لا تنقطع عن تلك الهواية، لكن رأيت أن سؤالي سيكون سخيفاً فأنا لم يسبق لي الخوض معها في مثل

تلك المواضيع بجدية، إلى جانب أنني وبّختها مرة أو مرتين على كتب اتهمتها أنها أضاعتها ثمّ عدت و اكتشفت أن بعض الأصدقاء استعارها و طبّق قانون الحكمة القديمة التي ترمي من يُعيد كتاباً استعاره بالحماقة.

تحت الكشافات

جميع البيوت في حينا متشابهة ما عدا ذلك البيت. من سؤ الطالع أن البيت المختلف يجاورنا حائطاً لحائط مما أضفى على حياتنا شيئاً من الغرابة. يتكون البيت من طابقين و أيضاً يتم تجديد طلاؤه بصورة شبه دورية بينما بقية البيوت من حوله واطئة و مُكشِّرة عن طينها و طوبها و لا تعرف الطلاء إلا نادراً. لو تأمّلتْ حيّنا من فوق لبدا لك أن المنطقة تعرضت للقصف وآلت إلى حطام فلم يبق واقفاً حيث هو غير البيت المُلاصق لنا.

البيت المُسلَّح الرابض إلى جوار بيتنا الصغير يستقبل بين فينة و أخرى ساكنين لا قِبل لنا بهم. كنت قد نشأت في هذا الحيّ و ورثت البيت عن المرحوم أبي و أعيش فيه مع زوجتي و أمي و خالتي التي تعيش مع زوجها في حُجيرةٍ ارتجلناها في ركن منه و بدا أن الأمور مُستقرة إلى أن جاء من شيّد القطعة الخالية المُجَاورة لنا في زمن قياسي و فور الفراغ من البناء جاء سكان قياسيون بسيارات آخر موديل، أقاموا لبرهة وجيزة ثمّ غادروا و كأنهم يفرون من منطقة ستتعرض للقصف. و منذ ذلك الحين لم يتوقف السكان الترانزيت عن التدفق. لا أحد يعرف من أين يأتون و لا إلى أين يغادرون. تُرى سياراتهم و هي تنطلق في الصباح و تعود عند أول المساء. لكنهم أبداً لا يُطيلون المكوث. يغادرون ليحل غيرهم محلهم. و يشبهونهم تماماً. أزيز

المُكيفات مع هدير المُولدات كان جديداً علينا.

أول جماعة سكنوا إلى جوارنا لقنوا نساء الحيّ درساً لا يُنسى. بعد مجيئهم بيومٍ أو يومين تجمّعت بعض الجارات و توجهنْ صوب البيت الجديد بنية التعرُّف على السكان الجدد و تمنيّ الإقامة الطيبة لهم. زوجتي كانت ضِمن الفوج النسائي، و قد عادت من تلك الزيارة بوجه مكفهر. قالت إن الجارة الجديدة استقبلتهنّ استقبالاً مُثلّجاً و أنفقت الوقت القليل الذي قضته معهن في التحدُّث بالموبايل، وإنها كانت ترطن ببعض العبارات الأجنبية و تمطُّ الضحكات كما تفعل الممثلات و غادرت فور وصول طاولة في شكل عربة، تدفعها شغالة مُستورَدة.

قالت زوجتي إنها و بقية الجماعة، جلسن يمصمصن شفاههن و يغمزنْ إحداهنْ للأخرى و عندما عادت الشغالة لتعلن أن الست تأخذ غطستها المسائية في الجاكوزي، غادرنْ الصالة المُكيّفة و هنْ يهمهمنْ باستياء و لم يلتفتن إلى أكواب العصير الذي لا شكَّ أنه لا يقل برودة عن كل ما في ذلك البيت. أمضى أولئك السكان بضعة أشهر ثم رحلوا. بعد رحيلهم جاء غيرهم فلم يجرؤ أحد على التفكير بزيارتهم أو التعاطي معهم. و غادروا فجاء غيرهم. و هكذا أصبحت تلك الدار محطة يتوقف لديها أناس غرباء لا يرغبون في التعاطي مع أحد و يتجنّبهم أهل الحي فكأنهم من عالم آخر. البيت كالحرباء و يشعُّ بالنور عندما يكون التيار الكهربائي مقطوعاً. لا يدخل القاطنون و لا يخرجون إلا و هم في كامل الأناقة و العطر. النساء تلمع الأساور و القلائد حال خروجهن، قبل الولوج في السيارة المُظلَلة. الأطفال مثل أهلهم، لا

ينظرون إلى أحد و يُسرعون نحو السيارات، كأنهم يحرصون على تجنُّب الآخرين نأياً عن العين و الحسد.

كنت أعود من عملي كل يوم كما يعود الجندي المهزوم و الهارب من الحرب. صورة الحرب و أجواءها هي الأقرب إلى الحياة التي نعيشها. مقرّ عملي في مركز المدينة يشبه الخندق فالناس هناك لا يتبادلون كلاماً كثيراً و يتجنبون النظر إلى بعضهم البعض و كأنهم يخشون أن ينكئوا جراح بعضهم البعض و عندما يضطر الواحد منا للكلام مع أحد ما فأنه يفعل ذلك بصوت شديد الانخفاض حتى لا يستدل العدو على مواقعنا. نحتمي بالغرف المُعتمة طيلة النهار و نتظاهر أننا نقوم ببعض الأعمال و كل واحد منا يداري الخوف من مجموعة الأشياء التي باتت تتهدد حياة الناس و المُتمثلة في خصخصة المؤسسات الحكومية و تسريح مُستَخَدميها، أو إكتشاف مرض باهظ التكاليف كالفشل الكلوي ظلّ مُختبئاً طيلة الزمن و انتظر مُنعطف العمر، ليبرز لك قائلاً أين المفر و على اعتبار أننا من جنود الخطوط ما وراء الخلفية فإن كل نصيبنا من الغنائم يظل راتباً هزيلاً ننتظره أول كل شهر، هو أشبه شيء بما تجود به منظمات العمل الإنساني في مُعسكرات اللاجئين.

عندما أخرج إلى الطرقات تستقبلني أجواء ما بعد المعركة. الذين عرفوا كيف يتدبرون أمورهم في طل المعارك الدائرة يسرعون بمركباتهم إلى حصونهم و قد يبطئون ليلتقطوا بعض الصبايا السبايا اللائي آثرن تسليم أنفسهن اليوم طَوعاً، قبل أن تُستباح أعراضهن على قارعة الطريق غداً كُرهاً. و ابتسم من أفكاري و أودع المركز صوب الأطراف بعقلٍ به مسٌّ من خوفٍ لا أدري

سيلازمه حتى متى. لكن تلك الأفكار كانت تتلاشى فور وصولي الحي الذي وُلِدتُ فيه فالأوضاع هناك آمنة، والناس متشابهون و قد آثروا العيش خارج جميع الحروب الدائرة، و الأحلام نامت و من زمان و الطموحات استرخت، لكن بعد نهوض ذلك البِناء الشاهق بمقاييس حيِّنا أصبح لدينا ما يُذكرنا بأن الحرب الدائرة في كل مكان قد جلبت واحدة من قلاعِها بيننا فاختلفت الأحوال، فكأن صفعة قوية أيقظتْ ما نام و شدتْ ما استرخى.

التأثير السلبي لتلك الفيلا دخل إلى عقر داري، فقد بدأت ألاحظ أن الحوار بيني و بين العزيزة زوجتي بات شديد الإيجاز و أوصلني ما أمور به من هواجس و كوابيس إلى ترجمة كل حركاتها و سكناتها إلى معاني سلبية و أحسست أن نظرتها تقول لي:أين أنتم من هؤلاء، و لا شك أنها بهؤلاء كانت تقصد جيراننا أصحاب الثروة الصارمة. من جهتهم تنساب موسيقى حالمة و يهب عطر مُجنَّح، يسخر من أجنحتنا المقصوصة و يُذكرنا أن دخول العطر، و تحديداً عطرٌ مثله إلى دارنا أمر يتطلب وضع خُطة خمسية نستنفر لها كل طاقاتنا المالية المضعضعة.

بتنا كمن سُلِّطت عليه أضواء كشافات باهرة على غير استعداد منه لذلك و كل ذلك بسبب تلك الفيلا. و شعرت بوجوب التحرُّك لإطالة رحلة السفينة المثقوبة وسط العاصفة فغامرت و أقدمت على خطوة انتحارية قادتني إلى شراء عطر و قميص نوم من النوع الذي صارت الفتيات يتجولنْ به على قارعة الطريق جهاراً نهاراً، فاستقبلتْ ذلك بهمهمات فهمت منها ما يُفيد السخرية و الاستياء في حين كنت انتظر سماع ما يفيد الشكر و

العرفان. ربما ترغب في الجاكوزي و حفلات باربكيو، و لكن هل يُعقل أن تفكر بتلك الطريقة بعد خمس سنوات من العُشرة المضنية، لعبت خلالها الدور البطولي البائس للزوجة التي تُقيل عثرات و ترنُّح الجندي المهزوم و تُضمِّد جراحه و تستر عوراته؟!

و بعد عدة أيام من حماقة شراء تلك التوافه جاءت و وضعت كفاً حانية على كتفي. انتظرت لبرهة من الزمن أن تنطق، لكنها جاءتْ و جلست على ركبتي.

قالت: أتظن أنني على تلك الدرجة من الهيافة؟

قلت: المُحَاصَر لا يُحسِن التصرف دائماً.

قالت: يا أخي أنا مُتضايقة من الظروف. حتى القليل نحصل عليه بشِق الأنفس. نظرتُ إلى أنوار القلعة الرابضة في الجوار فوجدتها تنظر إلينا بصلف.

قلت: ليس هذا طريقنا.

قالت: أعرف، و قد أضحكتني بذلك الفستان.

قلت: لا أعرف لم اشتريتُه.

قالت: ليس قميصاً للنوم، هو جزء من الإستايل الآن و تعرف أنني لن ألبسه، لا للخروج، و لا للنوم.

قلت: إستايل هذه الأيام شيء عجيب.

قالت:أنت قلتها، ليس طريقنا.

قلت:لكنه يحاصرنا.

قالت:لا تحسب أنك بأمان مهما كان الأمر.

قلت:و ما العمل؟

قالت:ننام، و ربك كريم. نهضنا إلى الفراش و لما كنا ننام في الفناء فقد أطفأنا مصباحنا الوحيد، لكن مصابيح المبنى المُجاوِر ظلت تضيء الليل، فكأنه القصر الذي تُدار منه شؤون البلاد.

خطبة الشبح في لوحة زفت الطين

جاءَ الصباحُ. كلٌّ واحدٍ غارق في همِّه. سأضعُّ سفّة كبيرة تُمكنني من مواجهة الاسترقاق و العولمة. نهضتُ و اتجهت إلى البرميل. الماء في قعره يضجُّ بالطحالب و الأوشاب. الماء في القاع حائر في أمره و لو سألته عن لونه عن لونه لضحك و استلقى على قفاه. أين هي موسوعات الأرقام القياسية لتحكي قصة هذا البرميل؟عشرة أشخاص و برميل واحد. عشرة أنفار و مياه مُطَحلَبة. اللترات القليلة مطلوب منها أن تفي بحاجة الأنفار المهمومين ليوم على الأكثر، و في أوقات الشدّة، مطلوب منها أن لا تنفذ و أن تصمد لأطول مُدّة مُمكنة من الزمن، و لأن الأوقات هاهنا جميعها أوقات شِدّة فقعر البرميل مسكون بثمالة أبدية لنخب حياة الشدة.

غسلت وجهي و تخلصت من السفّة التي لم تُسعِفني على مواجهة

شيء. كانت مُكبِرات الصوت قد انطلقت مُعلِنة عن طابور الصباح في المدارس القريبة. ود السائح أولاً ثم مدرسة الزهراء فود السائح بنين و روضة التقوى، فروضة مشاعل التقوى، و حشد ممتد من الأولاد و البنات يتطوبرون هكذا كل صباح ليواجهوا حياة الشدة بضجيج أشد، متداخل من الآيات و الأحاديث و الأناشيد التي لم يتدربوا على إلقاءها جيداً. سأتبع حكمة الغراب النبيل و ألقي بحجر ثقيل إلى جوف البرميل، فيكثر الماء القليل ليروي كتاب المطالعة ظمأنا جميعاً إلى حكايات لا تُسمن و لا تُغني من جوع.

في الخارج صفعني تيار هواء قوي مُحمل بالغبار و صغار الحصى. الصباح يضجّ و يعجّ بالإنذارات التي تشير إلى صعوبة اليوم الطالع و تعنّته. و لكن أي يومٍ من أيامنا هو ذلك الذي لم يكن صعباً و لئيماً؟!الغبار يلفحني و الهواء حار منذ صباح الرحمن و ملحمة رحلتي إلى محطة المواصلات كوميديا سوداء، فرمادية و بلون الكُركُم. و هي لوحة إطارها كالح و قماشتها ملح مُزفّت بالطين. و مع ذلك فأنا أحمد الله يومياً أن رحلتي تنتهي عند المحطة و لا تتجاوزها إلى أبعد منها إلا نادراً.

كنت قد أنهيت دراستي الجامعية، و فرغت من طوابير ذنب الخدمة الإلزامية الوطنية، و أدرت ظهري لطوابير لجنة الاختيار بخيارها و فقوسها، و تخليت بقلب كسير عن التدافع مع آخرين بالمناكب لدى بوابات السفارات، كما و عملت لمدة وجيزة من الزمن في مدرسة خاصة، أفلستْ و تنازع الشريكان المُؤسسان نزاعاً مشهوداً، فتركت كل شئ و تخليت عن كل شئ

و أصبحت زبوناً لدى المحطة، أطلب الفُرجة و تفريج الهم في انتظار الفرج.

أول شئ أفعله في المحطة هو التزود بالتمباك. يدي ممدودة بالقطعة المعدنية و البائع غير مُنتبه، يؤجر جرائد، و يمدُّ الولاعة لمسطول عابر، و ينهر متسولاً شاخصاً ببصره إلى لا مكان، و ينتبه أخيراً فأتناول الكيس الصغير، و أضعه بحرص في جيبي بوصفه كل ثروتي في هذه الدنيا و أوصي نفسي بالحكمة في تعاطيه، و التعاطي معه، فالحصول على القطع النقدية ليس بالأمر الميسور لمن هم في مثل وضعي. و لكن بالله عليك، متى كان أمرٌ ما، ميسوراً لمن هو مثلي.

أسطول الركشات يعرقل حركة السير و الطابور البشري الرابض في انتظار الحافلات مُكفهر عن بكرة أبيه. هذا الحشد ينطوي على طاقات ثورية كامنة لم تجد من يستغلها بعد. هذا الاكفهرار يُشير إلى غليان الطاقات الحبيسة في الأعماق. سأستغلها ذات يوم بعد الفراغ من وضع نظريتي التي أسستها بناءاً على الخيبات التي عرفتها و تلك التي ما زالت بانتظاري في رحم الغيب. الرحم؟لو أعود إليه في هذا الصباح. ماذا تفعل في قبرها يا تُرى صاحبة الرحم الذي خرجت منه؟تتوسد الطوبة و تحلم بنا و قد تزوجنا و أنجبنا و أصبحنا رجالاً يشار إلينا بالبنان. لن أفسد حلمها برسالة تصف سؤ الحال عندنا على ظهر الأرض. سأدعها و شأنها و انصرف لشأني المُشين.

ما الهموم التي أريد تناسيها بالضبط؟جميل أنني نسيت أنني أحمل هموماً أرغب في تناسيها. اتجهت إلى مقعد المحطة و أقعيت عليه. رمقني ماسح الأحذية بحنق و فهمت من ذلك أنه لم يجدّ فيّ و بسفنجتي المقطوعة

صيداً يُعتدُّ به، و التقطيب على جبينه مفاده أنني أزاحمه الموقع الذي يُدير منه مهنته، و التكشير في أسنانه معناه أنه تفتيحة و لا يمكنني منازلته، لكنني ضربت بكل ذلك عرضْ الحائط و شرعت أحدق في الحشد و المركبات و الغبار.

استغرقت عملية التحديق جُلّ ساعات الصباح و خطرت لي في الأثناء عدة أفكار لم يكن بالإمكان تنفيذ أي واحدة منها كالعادة. أبرزها تلك التي تتلخص في في خطبة أُلقيها على أعضاء الحشد المُنتظِر بتململ. موضوع الخطبة هو إما أن تجد وسيلة تقلّك إلى عملك في الوقت المناسب أو تعود إلى بيتك أيها المواطن المشكوك في شرفه. هل تُصدِّق أن بعضهم يحصل على ركوبته بعد العاشرة متوجهاً إلى أداء عمل ينتهي دوامه عند الثانية عشر، قاطعاً إليه طريقاً نصف مُسفلَت يستغرق قطع الكيلو منه ربع ساعة في المتوسط؟تصعد الشمس إلى كبد السماء و أنا بلا فطور و التمباك يلسع لثتي و الحشد إلى كثافة أقل و الهموم التي تناسيتها تعود و قد سنّت أسنانها لتنخر أحشاء أفكاري التي كفت عن النمو.

في النهار لا شيء ينمو، لكنني عادةً ما أنجح في اجتياز امتحان النهار بدرجة مقبول، يساعدني على ذلك جوعي و البيت المتخفف من زحامه في هذه الساعات فأدلف إلى العنقريب العاري و أنام نوم الديك على الحبل.

بعد الاستيقاظ و تناول الطعام القليل مع الجماعة الكثيرة تبدأ المرحلة الصعبة من اليوم. في الصباح كانت الكوميديا سوداء و مع مقدم المساء ترتفع/تنزل الستارة على تراجيديا بلون الحنظل. الحنظل يأتي من أن هبوط

المساء يقوم بتركيز الأشياء و خصوصاً الهموم و الإحساس بالخيبة بعكس الصباح و النهار. كل ما كان خفيفاً و هشاً يسهل تطايره في ساعات الصباح يعود و قد اكتسب ثقلاً موجعاً مع حلول الظلام. لا شئ يتركني لشأني في الليل، عملية التناسي تنضم إلى قائمة المستحيلات الكثيرة التي تعج بها الحياة و ما من أشباح لأخطب فيها بل أشباح هاربة في كل اتجاه إلى لا اتجاه. طابور المساء أصواته أكثر مرحاً و جرأة من طابور الصباح، لكن في مرحها شيء غير مريح، لأنه مرح مُبطّن بالسخرية من أمثالي ممن لا يعرفون كيف يقضي الإنسان يومه.

لكنني أعود إلى المحطة مرةً أخرى، ضارباً بكل شئ عرض الحائط مرة أخرى. التحديق الصبور هذه المرة، يفضح أن الحياة خاوية على عروشها و يفضح المتسللين إلى ستات العرقي و الثنائيات التي يصعب البت في أمر شرعية علاقاتها من عدمه، بسبب اختلاط الحابل بالنابل و التحديق الأكثر صبراً في المركبات يكشف أن أكثر من تزاحموا على أبوابها في الصباح قد عادوا بخفي حُنين الآن. و لكن هناك تحديق غير صبور و لكنه حنون صوب ست الشاي نصف الجميلة، التي تكالب عليها أنصاف العُشاق غبر المُهندمين الذين ربما أنضم إليهم، إذا كان لدي فائض من القطع المعدنية أو فائض من الشجاعة أتمكن به من مواجهة باقي الليل بدون تمباك.

سيرة قبر

■ اسمك خلود؟!

– نعم.

■ في عالم الموت و الدمار هذا؟

– و ما حيلتي.

■ أنت سمراء.

هل يعجبك هذا؟

■ سمراء و دمك رايق و الدنيا حرب.

هل نذهب؟

■هل دنا موعد حظر التجول؟

ـــ لا أعرف.

■ ماذا تفعلين لو قابلت مُحارباً مدججاً بالسلاح؟

افتح أزرار القميص العلوية.

■ هذا مناسب.

كم ستدفع؟

■ أنا محارب مدجج بالسلام.

كنت في طريقي إلى الغرب بعدما احترق الشرق و قد زادت اتفاقيات السلام الحرب ضراماً و انقلبت الأحوال بين يوم و ليلة، كنت أعبر الركام و الحطام و يستوقفني المحاربون فيلقون عليّ أسئلة لا أفهمها فأجيب عليها إجابات غامضة فيصوبون السلاح إلى صدري و يصرخون في بعضهم بغضب ثمّ يخلون سبيلي، لكن ذلك مؤقت فالعالم يعجُّ بالأسلحة النارية و كنت استوقف بنات الليل فنتبادل الجمل القصار و جميعهن يُسمين خلود.

هل ستدعني و تمضي؟

■ و ماذا أفعل؟

احملني على كتفك.

■ ماذا يحدث بعد فك الأزرار العلوية.

– يأتي محاربون آخرون و يتبادلون إطلاق النار و يموتون عن بكرة أبيهم.

كانت في السماء و الآفاق التماعات. لم تكن هي السماء لأن دخان

الحرب العالق يقوم بينها و بين الأرض و هي السرادق الذي تضربه الحرب حول الموجودات.

ـــ لماذا الضوء في الشرق و الغرب أحمر؟

و رفعت وجهها فبان خال عند بداية العنق.

- ليس ضوءاً، إنها قاذفات اللهب.

و الأبيض الذي يشق الدخان؟

- ليس ضوءاً. أنه نداء أزمنة لن تدركنا هنا، و الحسرة أن لا ندركها هناك.

جاءت عربة مُدرعة و هبط منها جند مدججين بالبنادق الأوتوماتيكية سريعة الطلقات، اتخذوا من العربة ساتراً، أخذوا يراقبوننا من وراءه.

دعنا نذهب.

- سيفتحون النار.

و تقاتل الجند خلف الساتر، و رأينا أرواحهم و هي تهبط إلى الأرض السابعة، لكننا لزمنا موقعنا و كانت أصداء الحرب داوية.

ثم سقطت قذيفة بالقرب منا، فصنعت قبراً يتسع لأثنين فتريثنا و لم نهبط، و لما طالت الحرب و أسرف الجند في تقتيل بعضهم البعض، و أشتد الكرّ و الفرّ هبطنا متماسكين و لم نلتق بعدها البتة.

دفارات مُفَخخة

أقبلتْ فأُدير الشريط و لُعبت الخطرات، و أُطلِّق نفيرٌ عال. كان الدفار مُنجَّداً بالقطيفة، ستائره مُسدلة و في الكابينة عطور و بخور و المُساعد متكئ على الإطار، يتأمل البنت المُقبلة في الزي الأبيض و الأزرق، و لاحظ أنها لا تحمل الحقيبة و هي تنتعل حذاء مفتوح دبابة، و قد تعوّد أن يراها بالشوز ذي اللسان العريض و العنق العالي، دنتْ فرأى جمالها قد عكّره الإرهاق و وجهها لم تعركه السنون بعد، و أبعد الزجاج المُظلل عن نافذة حافلة مُنتظرة غير بعيد، و أطلَّ وجه فتاة نظرت للبنت المُنتظرة نظرة ذات مغزى، فردت الأخيرة بالمثل و لم ترد على ابتسامة السائق الذي فتح الباب، و ارتمت إلى جوار صديقتها، و لم تنبسا بكلمة، فلما أقبلت كريسيدا بيضاء بزجاج بيرسول بلون البن المحترق اضطربتا و عادتا تنظر إحداهما إلى الأخرى، ثم غادرتا الحافلة صوب الكريسيدا و انفتح الباب فجاء لحن سريع صاخب، سكت حالما ركبتا و أُوصِد و غادرت الكريسيدا فتبدلت ملامح سائق الدفار و اختفت ابتسامته و الذي ابتسم هذه المرة هو المُساعِد، ابتسامة صغيرة مُتَشفِية.

جاء سائق الحافلة مُكفهراً قليلاً، فأخبره المساعد أن الحمام طار، فنظر سائق الحافلة إلى سائق الدفار فقال له الأخير: الحديدة البيضاء، فأخرج سائق

الحافلة منديله، و مسح حذاءه حتى لمع كأنف الكلب، و جلس على المقعد الذي احتلته الحمامة قبله. في الجانب الآخر عصفورتان في البُني مضطربتان، تنظران إلى جهة بُقبل منها شبان بنظارات سوداء و بناطلين جينز و الشارع بطوله و عرضه مشغول بحمائم تنظر و تنتظر، و عصافير متململة، لكن الحمامتان اللتان تلعقان الأيسكريم البمبي كانتا تنتظران المرسيدس و كانت هناك عصفورة وحيدة تحت شجرة قريبة، خائفة قليلاً و مُرتبكة، و أخيراً و بعد أن تابعت بقلق فصل الحمامة مع السائقين، هداها تفكيرها إلى أن تحل محل الحمام الذي طار، فاتجهت إلى هناك، و تأهّب سائق حافلة الزجاج المظلل و نظر إلى سائق الدفار نظرة خاطفة و مُتفاهِمة، فرد ذلك بنفير عالٍ.

ما كان السائقان يحبان التعاطي مع العصافير لأن أمورهما سالكة مع الحمام الذي يُجيد التصرف و يعرف بعض أصول اللعب و فهمَ المُساعِد الذي كانت ترهقه متابعة هذه الأمور، أنهما سيتدبران الأمر بعصفورة هذه المرّة من باب القحة و لا صمة الخَشُم. انقبض المُساعد قليلاً و ودّ لو بإمكانه إبعاد العصفورة عن الشَرَك، قطع الطريق عليها و وضعها في مسار آخر و التفاهُم معها بوصفها عصفورة حقيقية، عصفورة و من الأحسن بقاؤها عصفورة، و أن تحلِّق بعيداً، أبعد ما يُمكن حيث لا تُطال، و لكنه مُساعد و ليس من التفاتيح في شئ و ربما سيبقى هكذا أسيراً يُراقب ما يدور مُتَكئاً. الذاكرة مسكونة برفات الحمام المذبوح و حيرة العصافير في غربتها عن العش.

لم يجد في نفسه ميلاً إلى الخوض فيما يخوض فيه جماعة المُساعدية و السائقين منذ أول يوم تعلّق فيه بدفار، و ظلّ يخرج من المُولِد بدون حُمُّص،

و هدفاً لسخريتهم، حتى أنهم اتهموه بافتقاد ما لا يجب افتقاده، لكن ذلك لم يعن له شيئاً، و اكتشف أن سعادة غريبة تنتابه عندما تفلت حمامة، و حين تفرُّ عصفورة، أما عندما يجوب السائق الشوارع ليلاً دون العثور على لبوة تائهة و يعود خالي الوِفاض و هو يسبُّ و يلعن و يصب جام غضبه على الطارة فإنه كان يكتم الضحكات و يشيح بوجهه الذي يخشى أن تفضحه أضواء العربات المُقبِلة من الاتجاه المُضاد.

بالقدر نفسه الذي كانوا يرونه به غريباً، كان هو يستغرب لهفتهم المُلتهِبة و هم يطاردون اللبوات ليلاً و ينصبون الفِخاخ للعصافير نهاراً، كانت معدته تنقبض و يحسّ بها صغرت في المطعم بعد يوم طويل قضاه مُعلّقاً على سُلّم الدفار، كانوا يلتهمون في صخب و يستعيدونَ نتفاً من أحداث اليوم بينما يمصّ أحدهم عظم قصير أو يُغرق أصابعه في دهن الكوارع لاقتطاع شريحة لحم مُعتبرة، و كانوا يلاحظون قلة احتفاله بالكلام و الطعام، فيسخرون منه، و ذات مرة اقترح عليه السائق التوجه إلى دراسة الطب و مغادرة عالم الدفارات إلى غير رجعة.

ما من سبيل إلى دراسة الطب و مفارقة الدفارات محال، قلبه مثل جسده، تعلّق بها، لا يعرف كيف ستكون حياته لو لم يكن في الدنيا مثل كل هذا، كل هذا الحمام، تلك المحطات و العصافير. أتى من بعيد، مكان بعيد و مهمل، بيوت طين حولها تلال رمل، لم يدر بخلده يوماً أن كل هذا العدد من الفتيات يمكن أن يصادف أحداً في مكان واحد في يوم واحد، و أذهلته كثرة الوجوه و تعبها، عشرات الوجوه، و رغم انهم يتحدثون

عنهن على أنهن حمائم و عصافير إلا أنه لم يفهم، لمَ يُستدرج الحمام إلى الذبح بتلك الطريقة، كل يوم يسمعهم يتحدثون عن مغامراتهم مع الدجاج البض، و هو يذكر قصة الدجاجة على السرير التي وصفها السائق و قد تخففت من الأزرق و الأبيض، و يذكر أيضاً اللبوة الجريحة التي التقطوها من براثن (أوبل) و بكت فلم يمسحوا دمعتها، بل أثخنوا الجراح، و يذكر أيضاً العصفورة التي صعبت عليه، العصفورة التي رقّ لحالها هي السبب في كل هذا، هي سبب انقباضه الأول و الأخير من الحكاية برمتها، لم يرها بعد ذلك و لم يأت أحد على سيرتها و بدا أن النسيان قد لفّها و ودّ لو يسأل عنها، لو يبحث عنها، و لن ينسى أبداً الطريقة التي كانت تنظر بها عندما دخلت و أيضاً نظرتها و هي خارجة، شئ مُهول، لم ير في حياته عصفوراً ينظر هكذا، و يذكر أنه خاف على نفسه، و أنه فكر في عمل شئ لأجلها، سؤالها عن ما بها، و ندم لأنه لم يفعل، فربما ساعدها، ربما عرف، و تمنى لو فداها بروحه.

كان الدفار مُكشّباً جيداً و بالكابينة دلاية على هيئة صقر متأهب للانقضاض و ظل هو مُساعداً طيباً و ساذجاً و السائق يُفضِّله و يستبقيه لأنه لا يُقحم نفسه في اللعبة كما يفعل بعض الصبيان الحمقى هنا و هناك، و كن يتتابعن، حمام رقاص، حمام بلدي و زاجل و أفرنجي و في الطريق عصافير الجنة، في الكبائن و تحت الأشجار و خلف الزجاج المُظلل، يأتين من بعيد و يذهبن إلى بعيد، و قلبه مُنقبض لأجلهنّ و عندما سمع أغنية أنا يا حمام ذات مرة استبدت به حالة غريبة، و أحسّ أن الأغنية تعنيه و في خلواته يدندنها و يترنّم، تكاد عينه تدمع.

أكثر شيء يؤرقه و يقضّ مضجعه، نظرة لم يكن يفهمها تضجّ بها عيون الحمام و العصافير، كأن هناك مروحة تدور بسرعة جنونية بداخل الحمام و العصافير. هل ذلك لأن السائقون يمروحون العربات و يتطوحون بها في الاتجاه إلى أرض العمليات، أم لأن الكرة الأرضية أصلاً ممروحة. أرض العمليات. البيوت البعيدة و التي أبوابها من الزنك لا تهدأ فيها العمليات أبداً. البيت الذي يسكن فيه مع سائق الدفار الذي يتعلق هو به و سائق الحافلة الذي يتحدث مع العصفورة الآن أكثر أراضي العمليات نشاطاً، فهو دائماً مُجهز بالعتاد، مودست، عوازل، دوريكس، حبوب، سفن أب في الثلاجة، بساط عليه لحاف بملاءة حمراء، ند ولمبة حمراء، أعواد خُمرة و صندل و فركة قرمصيص و ستائر مُسدلة دائماً. ودّ لو بإمكانه التحدُّث معهما رجلاً لرجل و إفهامها أن لا أحد يرفض العمليات أو يكرهها، لكن ليس بهذه الطريقة، و أنهما نالا ما يكفي من حمام، حصتهما و أكثر، و أنه يخاف على العصفورة و على كل العصافير، خائف عليها من شرك تلك النظرة، يريد أن يوصل إليهما فكرة مفادها أن الأمور يمكن أن تتخذ وجهة أخرى، لكنه بقي حيث هو و تذكّر المرات السابقة المُشابهة، و فكر في العودة إلى دياره حيث الرمال في كل مكان و الغبار يغطي كل شئ و لا حمام و لا عصافير و لا هم. تزايد قلق العصفورة و هي تتحدث مع السائق، من وقفتها يعلم أنها قلقة و مترددة و حائرة، و السائق بنظارتيه المظللتين لم يكن يتحدث كثيراً، كان يسلّط نظراته عليها و يرمي كلماته القليلة في المواقع التي تقع فيها مثل تلك الكلمات، و العصفورة مسكينة، طارت من العُش، يبدو أن أمها اطمأنت إليها و وثقت في قدرتها على الطيران، هزت رأسها ففهم أنها وافقت و أسرع سائق الحافلة

إلى سائق الدفار ليتم معه الشغل و يُفهِمه كيف ستجري الأمور، و استغرق حديثهما زمناً و بدا أن العرض لم يعجِب سائق الدفار، حيث أن حركة يديه نمّتْ عن التذمُّر و بدا سائق الحافلة مُجتهِداً في حمله على الإذعان قسراً، و تعاظم قلق العصفورة، قلق عظيم يعجّ به هذا المكان، و في قلقها تتلفت، و شاءت الأقدار أن تحطّ نظرتها التائهة و الهاربة على المساعد الأسمر، و تلاقت النظرات و حولت بصرها بقلق لكنها عادت إليه و هو لم يحول بصره قط، و بدا كأنها وجدت ما تتشبث به، و سرت قشعريرة في جسده و بهُتَ لأن تقاطيعها قالت كلاماً، حكتْ قصة بليغة في سطور قليلة، و عاودته الرغبة القديمة في أن يخطو صوبها و يخاطبها و يعتقها ثم يدعو لها بالتوفيق و النجاة فتحرك خطوة و خُيِّل إليه أنها شرعت تخطو بيأس، و قبل أن التأكُّد من الأمر، عاد سائق الحافلة فأومأ لها فترددت قليلاً، فمدَّ يده و أعانها على الركوب فركبت بصعوبة، كأنها تتجنب وحلاً، و التفتت و هي تغيب، فلم يُحرِّك ساكناً و لم يُصدر الباب المُشحَّم حديثاً صوتاً عندما جره السائق، ثم ركب مُخلِفاً عجاجاً ذكّره بتلال الرمل.

السهر والحمي

أمضيتُ الأصيل في تقليب صفحات مجلة أسبوعية واسعة الانتشار، و استوقفتني صورة رجل أصلع، أشيب، تتعلق بذراعه غادة هيفاء لها من العمر نصف ما له و أقل. قرأت الخبر عن الزواج السعيد الذي تمّ رغم كل الظروف ثم عدت إلى الصورة و أطلت النظر فيها. وقفت لدى الصورة وقوف شحيحٍ ضاع في الترب خاتمه. تخطيت الأربعين مؤخراً و إذا رأيتني فستمنحني خمسين مع الرأفة. نظري كليل، لكنه لا يحول بيني و بين السطور المتخصصة في سرد الفضائح و نقل الوشايات.

على وجه الرجل ابتسامة ظافرة، ليس كما يبتسم الشباب، بل هي ابتسامة كهل مُكتنِزة تجربة و خبرة، و هو بابتسامته و مظهره العام قريب من غلاف كتاب رصين يتعذر تخمين ما يحويه، و انتقلت إلى الفتاة. نجمة شاشة صاعدة و صغيرة و تتوفر على كل ما تبحث عنه النساء لصرع الفرسان و لا شك كل ما يجعل الرجال يجنّون، ماكرة و لكن بحساب.

ما الذي جمعهما؟الحب، المال، روح المغامرة و وباء الشهرة؟أياً كان الأمر، فمنذ ذلك الأصيل بتُّ أعود إلى تلك الصورة بانتظام، كأنها مصل مُنشِّط، و للحقيقة فإنها حركّت بركاناً خامداً يُنصَحُ الكهول عادةً بتجنبه.

سألت نفسي عما سيكون عليه الحال لو أنني كنت مكانه. ليست هذه هي المرة الأولى التي أطرح فيها مثل هذا السؤال، ففي مرات كثيرة أثناء تقليب صفحات المجلات تستوقفني صور الرجال الذين يتحكمون في مصائرنا و يشكلون العالم على هواهم، و هم بالبزات العسكرية أو في الفُل سوت أو بالشيرتات و الشورتات على السواحل و عند الضفاف و هم يداعبون كلابهم و أحفادهم و حفيداتهم، عشيقاتهم أو العوام الذين يتحلّقون حولهم، و يتبادر إلى ذهني سؤال :بماذا يتفوقون عليّ حتى ينالوا هذه الحظوة و من ألقى بين أيديهم بمقاليد الجاه و السطوة؟!

أهم ما في القصة أن هذا السؤال يصحبني منذ نعومة أظفاري، و كما ترون اخشوشنت الأظفار، و كبر السؤال و عاد ربما ليُصنفرها و بعيدها إلى أول نعومتها.

و لكن هل بعد تخطيّ الأربعين و زحف الصلع و اشتعال الرأس شيباً و قِصرْ النظر، مد البصر و تقليب الدفاتر المهترئة جائز؟إنني الأشيب تكأكأت على الأشجان الصغيرة و افرنقعت الأحلام، تشتّت شذر مذر و لزمتْ الفراش و هي الآن تكابد هلوسات النزع الأخير.

ما هذه بالهلوسات، إنني أفتش عن زمني الضائع و أنا مدين لصورة الكهل و الهيفاء بالسهر و الحمى، بيد أنني أضم صوتي لكل من يقول أن العبودية لا تنفكُّ تُحكِم قبضتها على خناقنا و تلبس لكل حالٍ حالها.. أو لم يدفعوا بنا إلى الدواوين الحكومية و أفهمونا أن الحياة تخبطٌ في تلك الأروقة و انتظار قلق للمرتب و قيلولات ملولة نقضيها في تقليب الصفحات و التحديق

بصورهم و هم بمنأى عنا، كأن عالمهم ليس عالمنا و كأنهم حكاية تُروى لنا.

باتت قضيتي واضحة و لا لبس فيها: إنني لم أكن ظافراً في يوم من الأيام، لم أظفر بشيء و أظفاري اخشوشنت، و رغم كوني شغوفاً بالحياة و في مطلع حياتي كانت لدي أوهام عن الحق و الخير و الجمال، لم تؤدي إلى شيء، فإن العمر مضى هكذا، و آخر ما بلغته هو هذا، النظر إلى أعلى، إلى خارج ما أنا فيه، و قد بات مصدراً للأرق و القلق و السهر و الحمى و بينما القضية الكبرى هي قضية الظفر فإن القضية الصغرى التي أخذت تكبر هي أن هناك قلةٌ قليلة تمنعني و تمنع السواد الأعظم من البشر من الظفر بشيء، و يطيب لها أن نتفرج عليها بإنبهار و نصفق لها، فيا أيها البشر، هؤلاء الظافرون سيطلبون منكم في يوم من الأيام عبادتهم دون الله ربُّ العالمين فأسمعوا و أعوا.

أوجعني شديداً تفاقم الإحساس بأنني صفر على الشمال. أحسبها فأجد المحصِّلة خسارة و وجع في القلب، أبحث عن الأصدقاء، أيام زمان، يا حليل زمان، أبحث عن أطلال أقف عليها و أنشدها أبياتاً للبحتري، لعنترة، أين أنتم يا شعراء الأطلال، سلقط ملقط أنقب و ما من أطلال، و عند ذلك الحد، عندما أجد أنني جُرِّدت حتى من حقِّ الوقوف على الأطلال، تثور ثائرتي، و أنخس جراحي، و أقول أنني و من هم على شاكلتي من البشر، خُلِقنا لنكون هدفاً استراتيجياً لغدر الزمن و المسكنة و الذل و الرضا بالمقسوم، بينما يظل حظهم الظهور و الحبور و هم معقَّمون، حتى فضائحهم تفوح منها رائحة المستوصفات الخاصة و جراحهم نبيلة و هي تدخل من باب القضايا الكبرى و قضايا الرأي العام و لا تخرج، و لهم امتياز تغيير المصائر و

الخرائط بجرة قلم، بنزوة و حلم، و نحن لنا الهم و الغم.

و ماذا يبقى لمن هو على حافة العمر، و قد بات هذا هو شغله الشاغل، هذا الميل إلى إنجاز مهمة مستحيلة لا مثيل لها، و تعديل السيرة الذاتية بضربة معلّمٍ لتصبح أسطورة، اجتراح أمرٍ يسير بذكره الركبان، و يتناقله الناس جيلاً بعد جيل، شطب عار السنين الذي هو مرورها و تراكمها بلا جدوى، كل ذلك انتبهت إليه بغتة، و انتبهت أكثر إلى أن أربعين عاماً على ظهر الأرض ما هي بالأمر الهيِّن.

بت كثير التقلّب قليل النوم، و ذات ليلة قررت فعل شيء ما، أي شيء. سهرتُ حتى الفجر، الليل كله انقضى في ضربٍ الأخماس بالأسداس، تحاورت مع ذاكرتي و قلبتُ مذكرتي و تلوت أبياتاً من الشعر فكنت كمن يلوك الحنظل و يستجير بالنار من الرمضاء.

ضاق الكونُ بما رحب، و تكاثرت الأفكار السوداء، هذا ما يسمونه أزمة نفسية و مراهقة متأخرة و عقدة لوليتا و هوهوت و قلت إن الإنسان عندما يتجاوز الأربعين فإن عليه الانزواء و تأمل ما يدور حوله على أنه لوحات في معرض يزوره للمرة الأخيرة.

و صار هذا ديدني. بتُّ بكياني الهش، كثير السهر و التفكير بعنف. في كل يوم تخطر لي أفكار جهنمية يصعب تنزيلها إلى أرض الواقع، بسبب السن (لعنة الله عليها) و أيضاً لأنني أنتمي إلى بلد ينتمي إلى العالم الثالث يكثر فيه الفقر و يسوده الجهل رغم معاهد الكمبيوتر الكثيرة التي انتشرت

في العاصمة و الأقاليم.

ثم قلت أنني يجب أن أراقب و أسجل كل ما يدور لأكون شاهداً على العصر فاشتريتُ محبرة سوداء كالليل، و لفة ورق بيضاء كالكفن و دخلتُ إلى المُعتزل، و جلست و القلم بيدي و الورق إزائي و بقيت هكذا زمناً طويلاً و لم يفتح الله علي بحرف، فنهضت و أطفأتُ المصباح و استلقيت، لأخطَّ على جدار الليل سهري الحاشد بأشباح مُقيَّدة.

- ملحوظة:

لم تقع القصة السابقة لأنها بلا زمان و لا مكان، و كيف تقع و العالم مُوَّزع بصرامة إلى بنايات شاهقة و أزقة ضيقة، لم تقع لأن العالم مجبول من الأفكار و الواقع، إن الكهل المذكور يسحقه الواقع، و هو حين يفكر فيما يقع فإن الأفكار تسحقه.

حارسة القدور السود

ما عاد أصدقائي الذين اغتربوا يتصلون. آخر مكالمة تلقيتها من صديقي الذي ذهب إلى ماليزيا كانت مقتضبة و باردة. قال إنه قد يسافر من هناك إلى أمريكا و دعاني ضاحكاً للخروج من القوقعة. صديقي الذي في فيينا لم يتصل منذ مغادرته البلاد. و صديقنا الرابع بدبي لا يتصل و يفضّل قضاء إجازاته في كازبلانكا أو اسطانبول أو شرم الشيخ و سمعتُ من قريب له أنه يعدُّ العدّة للهجرة إلى كندا و الحصول على الجنسية. و منذ زمن بعيد انقطعت قدمي عن زيارة بيت روجينا ست العرقي التي كنا نجتمع عندها بصورة شبه دورية.

التقيت بروجينا مُصادفة قبل أيام. صعدتْ إلى (الأمجاد) التي كانت تنتظر راكباً واحداً لتنطلق و عندما تلاقت نظراتنا ابتسمتْ فسارعتُ إلى تحيتها قبل أن تُدير بصرها و تتجاهلني مُدعية لنفسها أنه من الأفضل لي و لها إدعاء أن كلاً منا لم ينتبه إلى الآخر.

بعد نجاحي في إفشال محاولة التجاهل بحثتُ عن كلمات من شأنها فتح حوار خال من الأشواك مع حارسة القدور السوداء. فكّرتُ في الأمر قليلاً فتذكرتُ أننا كنا نبالغ في مدح الشراب، و كانت هي تجتهد في تهيئة

وضع مميز لشبان يضعون النظارات على عيونهم و يحترمهم الرواد و يصفونهم بالأساتذة. هل أمدح شرابها الذي كان، على مسمع من رُكّاب الأمجاد القانطين؟طبعاً مستحيل.

وجه روجينا ذكرني بشلتنا التي تشتّتْ. كل واحد منا مارس التدريس على إنه مهنة عابرة سيتخلى عنها عندما تلوح الفرصة المُناسبة و كنا نتخبّط و نخبط على أبواب الحياة العملية و التي وجدنا سُلَّمها مزلقاناً شديد الانحدار ترنحنا فيه و لمسنا طرفاً من قسوة الحياة العملية و غير العملية حيث الأشياء موحشة و متوحشة فكنا نهرب إلى واحة روجينا الظليلة و بينما أنا أبحث عن ما أفتح به الحوار سألتني عن الشباب و أخبارهم. ترددت أسماء البلاد مع أسماءهم و أنا أردُّ على سؤالها فهزت رأسها و خيَّم الصمت. حلّقت أسماء المُدن البعيدة في فضاء الأمجاد لبرهة وجيزة من الزمن و أستاء الركاب في مقاعدهم من العرض الهزلي الذي لعبه صوتي و طلب أحدهم من السائق تشغيل شريط أستله من جيبه.

لم تكن روجينا ست عرقي و حسب.

المتناقضات كانت تتجاور و أحياناً تتحاور و تتناحر في بيتها. كانت قادرة على إسعاد الجميع و لم نكن قادرين على إسعاد أحد و لا حتى أنفسنا. مرّ زمن لا بأس به و تصارعت في وعينا الأفكار و الأيدلوجيات و الأحلام و لم يتمخض الأمر عن شيء سوى الرماد. على الأقل تبدو لي الأمور على هذا النحو. من الأمور التي لن أنساها أن واحد من الرواد أهدى روجينا سجادة جميلة عقب عودته من الحج. و أذكر أن روادا كانوا يؤدون العشاء على تلك

السجادة قبل أن يفرغوا للكأس.

سألتها عن حسب الرسول فشع بياض أسنانها بابتسامة خارقة و قالت: لن تصدق ما حدث.

سألتها:هل ما زال متيماً بأنجلينا؟

اتسعت ابتسامتها و بات الشعاع يخرج من كافة جسدها.

قالت:يعيش معنا الآن.

قلت: لا تقولي لي أن ذلك حدث.

هزت رأسها و برقت عيناها:لديهما بنت في عامها الثاني.

كنا نعتبر بيتها محطة نتداول فيها الأفكار و ندفن في كؤوسها القنوط و الإحباط اليومي لكن أشياء تدور حولنا كنا لا نلق لها بالاً، و كنا ندعوها حارسة القدور السود متأثرين في ذلك بروايات أمريكا اللاتينية و كنا سعداء بتميزنا على بقية الرواد و إن لم نصرِّح بذلك.

وجه روجينا نبهني إلى أن الحياة لا تحتاج إلى كل تلك الأوهام التي ملأنا بها عقولنا كل ذلك الزمن.

كانت الابتسامة تصدر منها كما يصدر الشعاع عن الشمس، بدون تعقيدات. و أحست بالحرج و هي ترى نظري معلقاً بوجهها أغلب الوقت. في ابتسامتها شيء يثير الأسى في نفسي. أغضت حياءً فحوّلت بصري عنها و

أنا أحاول أن أتذكر آخر مرة صدرتْ فيها ابتسامة حقيقية مني.

طيلة سنوات الجامعة كنا نظنّ أن افتراقنا مستحيل، لكن ما حدث بعد التخرُّج هو أننا بتنا نلتقي لماماً، رغم إن الأحياء التي نسكنها ليست شديدة التباعد إلا أن اللقاءات قلّت و أفل بريق أيام الجامعة و ما عاد يومض إلا خافتاً في بيت روجينا الذي بتنا نتصادف فيه بدون تخطيط مُسبق كما كان الأمر في السابق، و نجلس كالغرباء و لا نجد كلمات نتبادلها إلا بصعوبة كبيرة.

وحدها روجينا ظلتْ كما هي، ومع ذلك متجددة دوماً. كانت قادرة على التعامل مع الظروف المتناقضة التي تحيط بها بحنكة عالية و كان التوفيق يحالفها في معاملة الجميع و كأن أمرهم يعنيها. لم تكن تبذل مجهوداً يُذكر في الاحتفاظ بابتسامتها حتى عندما يسود التوتر بسبب أخبار ينقلها رواد قادمون لتوهم عن حملات يشنها النظام العام، تستهدف القضاء على بيوت العرقي و ستاته و تلقين رواد تلك البيوت دروساً لا تُنسى.

حسب الرسول كان هو الآخر يجمع من المتناقضات ما يكفي لإحلال التوتر و الفوضى في كل مكان يحلُّ فيه. كان شاباً أرعناً، يبدو و كأن الحياة بالنسبة له تبدأ بعد الشرب، يأتي و يحتل موقعه ليتجول ببصره بين الرواد بنظرات تنم عن ضيقه بالمكان ومن فيه و ما أن يجرع كأسه الأولى حتى يغدو شرساً ضيق الصدر و سريع الانفعال. و سمعنا أنه على علاقة غامضة بالجهات التي يأتي منها الهوا لبيوت العرقي. حضوره كان يرتبط بمتاعب لم تكن بيوت العرقي بحاجة لها في تلك الأيام. في ذلك البيت الذي تنتصب

في منتصفه غرفة وحيدة كان الجميع يديرون الأمور بدرجة عالية من التكتم و تداول الكلام همساً مع الاستعداد التام للانسحاب من الموقع في أسرع وقت إذا أطلت المتاعب برأسها لكن حسب الرسول كان يحب أن يضايق الجميع و تخصص في التحرش بأنجلينا، البنت الكبرى لروجينا. كانت الأخيرة تقضي أغلب وقتها في واحدة من تلك الرواكيب القائمة خلف الغرفة، كانت منشغلة أغلب الوقت باستذكار دروسها و في المناسبات القليلة التي تظهر فيها كانت العيون تتعلق بقامتها المتناسقة. حسب الرسول كانت تصدر عنه عبارات مزعجة. كانت بارعة في تجاهله لكنه تجاوز جميع الحدود عندما حاول التهجم عليها. حدث ذلك في ليلة شديدة الحرارة. كان المزاج العام عكراً و كانت انجلينا تقوم بخدمة بعض الزبائن عندما نهض حسب الرسول و احتكّ بها بينما هي منحنية تجمع بعض الأكواب الفارغة. استدارت الفتاة و كالت له صفعة كدنا نصفق لها. انتظرنا ردة فعله لكن الفتي الطويل العريض تجمّد في مكانه و أشاح بوجهه عن عينيّ البنت التي كانت تنتفض من الغضب. ظل الجو مشحوناً بالتوتر و الترّقب لبرهة من الزمن لكن حسب الرسول استدار و عاد ليكمل شرابه كأن شيئاً لم يحدث.

روت لي روجينا كيف تزوج حسب الرسول أنجلينا. كان حدثاً خارقاً و لكنه تم. شيء فوق المألوف. طبعا أهله أقاموا الدنيا و أقعدوها لكنهم في النهاية قنعوا بأن تلك مشيئة الله. حسب الرسول الآن يرطن مثلنا تماماً. ضحكت روجينا و هي تخبرني بذلك.

كنت أعلم أن ركاب الأمجاد قد استاءوا من ثرثرتنا، لكن لا بد أن

بعضهم وجد فيها أشياء تلفت الانتباه. هذه أمور تعيش بين الناس لكنهم يتجاهلونها و يتعاملون معها كأنها غير موجودة.

و تذكرت النقاشات التي كانت تدور بيننا في بيت روجينا. قضايا ضخمة و مصطلحات عملاقة. كنا نقوم بتحليل أصعب الأوضاع في السياسة و الاقتصاد و الفن و حتى كرة القدم و نحتسي العرقي و نقترح الحلول. كنا نذم الزمان و أهله، و هذه البلاد القاسية التي تلفظ أبناءها، و قررنا في خاتمة المطاف أن العيش على هذه الأرض يشبه الانتحار و مرّ زمن يسير فلاذ أكثرنا بالفرار.

أما روجينا فقد واجهت أصعب الأوضاع و حلّت أشدّ المعادلات تعقيداً بدون أن تتلمذ على يد البروفسير فلان أو تقرأ للفيلسوف علان. فقط بابتسامة كالشعاع.

وصلتُ محطتي فطرقعت للسائق و عندما نزلت و هممت بالدفع حلفت روجينا بالطلاق كأي رجل جعلى فلوحتُ لها مودعاً و مضيت.

عندما أقبض الراتب القادم فسأخصص الجزء الأكبر منه لشراء البطاقات الهاتفية لاستعلم من الأصدقاء في أرجاء المعمورة عن أفضل البقاع التي تتوفر فيها شروط العيش الإنساني و التي توفر فرص معقولة لتنمية الذات و القدرات و بعد جمع الداتا الكافية سأكرس كلّ جهدي للالتحاق بالركب في أقرب وقت ممكن.

الذئب و الحمل

عندما مات السر تناسى بعض شباب الحلة و رجالها بغضهم لشقيقه الواثق و شمروا السواعد ناذرين أنفسهم للقيام بالواجب على الوجه المطلوب. بعد العودة من المقابر و أثناء جلوسي مع بعض الرجال لمحت بطرف خفي أن الواثق لا يبذل جهداً يذكر لتغيير صورته التي رسخت في الأذهان فهاهو يحرص على أن يشيح بملامحه الصلدة عن ناس الحلة و يسدّ كل المنافذ التي قد تسمح لهم بأن يتعاملوا مع المأتم كما لو كان مأتمهم و تذكرت و أنا أتابع هرولته نحو رئيس الدائرة التي نقطنها و الذي لم يدرك الدافنة لكثرة مشغولياته، كيف أنه صرف حاج الأمين – جاره الجنب – بجلافة لا مثيل لها عندما سأله الرجل الشيخ مستفسراً عن المدة التي سيستغرقها نصب سرادق العزاء.

ربما شعورنا تجاه الواثق قد ضاعف من نهوض صورة السر في الخيال. ناصعة و بلا شوائب تلك الصورة. السر رجل من عالم آخر و الدموع التي ذرفناها عليه إنما هي دموع على ذلك العالم الذي تكاد قساوة تفاصيل الواقع تقنعنا بأن لا وجود له إلا في التوهمات و الأضغاث لكن رجال من أمثال السر كانوا قادرين على فعل ما هو أكثر من التنبيه إلى حديقة محجوبة خلف تلال من القمامة و المستنقعات الآسنة. اتذكر الآن المعركة الشهيرة التي

خاضها السر معنا ضد شقيقه و التي تمكن فيها من إحباط محاولاته إلى تحويل نادي فريق الحلة (الرمح الملتهب) إلى مبنى يخص مشروعاً غامضاً يؤسس له جماعة الواثق الذين كانوا قد استولوا على الحكم لتوهم. و لاحقاً صرف الواثق نظره عن الفكرة ساخطاً على أخيه و صرف النظر عن تحقيق أمجاد يعتدّ بها في حلة مهملة مثل هذه، و الأكيد أن دروباً أخرى انفتحت أمامه هي التي أوصلته إلى ما هو عليه اليوم من غلظة و فظاظة لا يسعى إلى إخفائها رغم مستنقع الثروة العريض الذي يعوم فيه و الذي لم يفلح في ابتلاع صورة الفارس الذي ترجل فجر اليوم.

رغم كل ما أبداه الواثق من جفاء في التعامل معنا، أصررنا نحن رجال الحلة وشبابها على البقاء في السرادق التي أخذت تضيق شيئاً فشيئاً بالأمناء و المنسقين و رؤوساء القطاعات و وجدت نفسي اتشبث بمقعدي في الركن عازماً على المكوث حيث أنا، عالم بأن الروح الشفافة تتحاوم في في فضاء السرادق و ستلومنا إذا ما تخلينا عن القيام بالواجبات التي اعتدنا على القيام بها في أفراح هذه الحلة و أتراحها.

عند الأصيل كنا نجلس عند مدخل الخيمة و كان الواثق قد أحالنا إلى العطالة باستخدام مجموعة من الشبان الغرباء تولوا الأشراف على خدمة المعزين و كأن الأمر يتعلق بخدمة النزلاء في الفنادق التي تُقاس عظمتها بعدد النجوم. كنا ساخطين و ليس في نية أحدنا مغادرة هذه الخيمة المنصوبة لوداع راحل عزيز، و بينما نحن على جلستنا تلك، أقبلت ثلاث سيارات بيضاء جديدة من النوع الذي بات الناس يطلقون عليه (رضا الوالدين) و (أحفظ

مالك). سدت تلك السيارات مدخل الزقاق و تأخر ركابها في مغادرتها و لم نتبين هوياتهم و هم خلف الزجاج المظلل، و ما كان الأمر يحتاج إلى كثير ذكاء لنعرف أن جماعة من عيار أثقل قد حلوا.

بعد أن شالوا الفاتحة، أنعزل الرجال الذين لفت حضورهم الأنظار في ركن من السرادق و كانوا متشابهين في السمت و الزي تحسبهم للوهلة الأولي أخوانا، بل إن الإمعان في النظر يكاد يجعل الرائي يجزم أن بعضهم توائم. يجمع بينهم أن بياض جلاليبهم شديد النصوع و العمائم على رؤوسهم بالغة الإحكام ، كما أن لحية كل واحد منهم حالكة السواد تتوسطها غرة بيضاء يكاد موقعها عند هذا لا يختلف عن ذاك، هذا غير النظارات بزجاجها النظيف و فريماتها البراقة و الأخفاف على الأقدام لا أثر للغبار و الكدوب عليها.

حضورهم أغرق السرادق في صمت دام لسويعات ما لبث بعدها أن تصاعد الهمس ليستحيل بعد قليل ضجة صغيرة تتخللها نداءات لجلب الشاي هنا و توزيع كاسات الماء هناك و ظل عدد مقدر من المعزين يختلس نظرات سريعة تجاههم بينما هم مستغرقون في الجلوس الواثق المطمئن، لا يتبادلون حديثاً، كأنهم طربوا للنظرات التي يتلصص بها الناس صوبهم.

توسطهم الواثق هاشاً باشاً، و هو الذي لا يكلمك إلا بعد نظرة حقارة بائنة يحدجك بها، كأن وجودك خطأ كوني يسعى إلى تصحيحه، هذا إذا حدثك، فهو طالما اكتفى بتلك النظرة في تعاملنا الإضطراري معه، فرمينا طوبته و بتنا نتجنب التعاطي معه و لولا المحبة التي في قلوبنا للسر، لما اجتمعنا

به في مكان واحد.

بدا متبسطاً مع أصحاب الجلاليب الناصعة، فكأنه نسي أن المقام لا يصلح لاستعراض العضلات و التمكن بهذه الطريقة التي لا ندري من أين تعلمها و هو الذي رضع من ذات الثدي الذي أرضع فقيدنا الذي يتفاقم إحساسنا بفداحة خسارتنا له ساعة إثر ساعة.

تمغنطت المنطقة التي احتلوها و تكهربت و لم يبق إلا أن تنهض لافتة مكتوب عليها ممنوع الاقتراب و التصوير، و ما عدنا بحاجة إلى النظر صوبهم لنعي أنهم لا يهمهم سوى أن يشيعوا في الجو و النفوس أنهم يتوفرون على سطوة قارسة و سلطة حارقة و قدرة على التلاعب بالخلائق و الأشياء بأفضل مما يقوم به الحواة، هذا كله يسنده تمرس في الإيذاء لا حدود له و رغبة فيه أحلك من كل بحار الظلمات التي قد تعن لأخيلتنا. و لأن أغبلنا كثيراً ما يصادف أمثال هولاء الرجال في أحوال متباينة من ضربه في الأرض و في مقامات غير المَآتم (حيث نكون نسبياً و نسبياً فقط في مأمن مما قد تتفتق عنه عقولهم الفتاكة في ابتداع أساليب مذهلة في التحقير و الإذلال و قطع الطريق على ما يجعلنا نتمسك بآدميتنا) فقد بقينا حيث نحن يزداد اليقين في نفوسنا أن من ولغ في الحرام و باع روحه للشر، تكثر توجساته، و تقل مروته فيخال العالم كله أحراشاً فلا يملك إلا المبالغة في التثعبن و يتقرصن في كل صغيرة و كبيرة من شؤونه، و يتربص بكل شيء لعميق إحساسه بأن كل شيء يتربص به و تنمو أزهار الشر حيثما حلّ و ارتحل.

تمايزت الصفوف و لحكمة يعلمها الخالق فقد أطالوا المكوث و التحصن

بمنطقتهم المحظورة، فكانوا يمسدون لحاهم في رفق و هم ينظرون للخلائق من عل و يشيحون بوجوههم عن الشبان الذين تكالبوا على خدمتهم بينما جلسنا حيث نحن بعرارقينا الشربانة و وجوهنا الغبشاء، نترحم على السر، و نسأل الله أن يرفع البلاء و أن يتلطف بنا و لا يسلط علينا من لا يخافه و لا يرحمنا، سبحانه جل و علا له ملك السموات و الأرض و كانت تضرعاتنا الصامتة أشبه بنظرة الحمل ساعة يطبق عليه الذئب و يسدّ بوجهه الآفاق و بينما نحن على ذلك الحال إذ سمعنا جلبة تصدر من المنطقة المحظورة، فلما التفتنا أبصرنا ود النور متشبثاً بعنق الواثق و هو يهدر بكلمات لم يكن تمييزها سهلاً لأن الجلبة استحالت ضوضاء و ساد الهرج و المرج، و جاء نفر من الشبان القائمين على الخدمة و خلصوا عنق الرجل من قبضة الكهل النحيل الذي أخذ يتنافض و هو يهدر بالكلام المتداخل بعضه في بعض.

قد يكون الواثق كعادته قد تجاهل الكهل النحيل الذي علم بأمر العزاء متأخراً، و من الجائز أنه أشاح عنه بوجهه عندما أقبل صوبه رافعاً كفيه بالفاتحة، و أياً كان الأمر فإن الواثق قد بدر منه ما أخرج الكهل عن طوره و قد تصاعد الأمر بأن صاح فينا ود النور بأن لا حاجة لنا بهذا الواثق الحقود و أمرنا بأن نتحرك من فورنا لنصب سرادق العزاء في النادي، و ما أن صدر الكلام عن الرجل الغاضب حتى نهضنا جميعاً في اللحظة ذاتها، كأننا كنا ننتظر ذلك، و اتجهنا جميعاً إلى دار الجمعية الخيرية للننصب للفقيد سرادق لا تشبه هذه التي لا ندري من أين جاء بها الواثق، و شددنا الخطو في حماس و تصميم، فالفقيد فقيدنا.

صفقات مشبوهة

كنا قد صعدنا إلى السيارات و انطلقنا صوب المقابر، عندما انفلتت الأم الشابة من بين النساء اللائي أحطن بها و ركضت في إثر العربات قليلاً قبل وقوعها على الأرض و كان آخر ما بلغنا من نواحها قبل انعطاف البوكس حشرجات كائن انهالت عليه سياط الغيب بوابل من العذاب.

بعد أن استقامت السيارات على الإسفلت، أخذت أنوار الموبايلات تتلامع في الظلام و أخذ الرجال يتبادلون أكياس التمباك و همهمات يستبين بعد قليل إنصات أن لا علاقة لها بجسد الصغير الذي سنودعه مثواه الأخير بعد لحظات.

شوارع الإسفلت التي تكاثرت مؤخراً، مهدت الطريق إلى المقابر التي تكاثرت هي الأخرى مؤخراً، و ما هي إلا دقائق معدودات حتى كنا رفقة الموت، و فتح الحارس الناعس بوابة جانبية و خرج من دلنا على الطوب و الماء و موقع الحفرة التي علينا معالجتها قبل إيداعها جسد الصغير.

بعد الصلاة على الطفل التففنا حول الحفرة و هبط اثنان ليهندسا (ود اللحد) فيما شرع الباقون في متابعة عملهما و تبادل جمل مقتضبة بأصوات ناعسة.

ما تزال الحشرجة الجريحة تطاردني. صوت عذاب حمل ولولات المخاض و صهللات الجماع و تفجعات الفقد المتقد كفرن يشدك إليه و يفسح لك مجالاً ضئيلاً يشعل فيك توهمات النجاة من قبضته، و يظل يناورك فلا أنت نضجت و لا أنت نجوت، يلتذ بتخبطك بين براثنه، هكذا بين النار و النار.

طفقت أتامل الوجوه من حولي على ضوء الكشاف القوي كأنما أنقب عن الأثر الذي خلّفه ذلك الصوت. الوجوه مائلة نحو الحفرة و القراءة متعذرة. رجال الدافنة يكررون ما اعتادوا عليه في المواقف التي من هذا القبيل: إصدار توجيهات القصد منها جعل المثوى الأخير نموذجياً، التفاني في المساهمة في الحفر و إزالة التراب حتى لا يذهب بالأجر قلة من القوم و استغفارات و تشهدات تنطلق بين الفينة و الأخرى كلازمة لا غنى عنها في مثل هذا المكان و هذا الموقف.

و لكن ما كان ذلك الصوت يا ناس؟

تصاعدت وتيرة التكالب على الحفر و إزالة التراب و تنادوا ليتم تقريب الطوبِ و كتل الطين التي يجري إعدادها في مكان قريب و نزل أرفعنا و أشدنا نحولاً فنام في (ود اللحد) نومة تجريبية مقتضبة كاختبار أخير لمدى صلاحيته و ارتفع صوت هرم أن هاتوا الجثمان.

اللفة البيضاء تناقلتها الأذرع حتى بلغت الحفرة و نزل الجد مع شقيق الأم و تناولاه برفق و أنزلاه بالحرص الذي يتعامل به البشر مع الأشياء القابلة

للكسر و فيما يتعاونان على سحب الثوب لمحت لطخات على بياض الكفن أقرب ما تكون إلى ما يخلّفه ماء الحناء على البياض من خرائط. ارتعشت كالمقرور و خيل إلى أن عمودي الفقري غادرني ثم ارتفعت الأيدي تتناقل الطوب و شرعوا يسدون الثغرات بالطين قبل أن يهيلوا على الحفرة أكواماً من التراب.

عندما عدنا كنت مشدوداً و في تهيّب جسيم من مباغتة ذلك الصوت لي من جديد بينما ما تزال خرائط الكفن التي لمحتها على حين غرة تتخايل لناظري و تخلق في روحي بلبالاً لا أعرف كنهه و لا كيف اتعامل معه.

تحسست طريقي إلى الأصوات كالتائه في غابة كثيفة و الدنيا ظلام، لا يعرف أين ستقوده الخطوة التالية. وزعوا علينا الماء المثلج و الكركدي و تسللت إلى روحي طمأنينة خجولة عندما بلغتني مجموعة من الأصوات لا يمكن تمييز صوت بعينه من بينها، كان نواحاً متعباً و مشروخاً و لم أطمئن تماماً للطمأنينة التي تسللت و رغماً عني أرهفت السمع، بل توظفت جميع الحواس لدي لتقوم بالتقاط ذلك النواح و امتصاصه بغية التأكد من أمر قد يعينني على التخلص من الهم الذي ركبني أو قد يضاعفه. أطلت السمع بقلب واجف فصرت قادراً على التمييز بين الأصوات القليلة و فرزها و أدعيت أن النواح المتواصل و الرفيع هو نواح الأم الشابة. كان قد فقد لسعته التي دهمتني و نحن في الطريق إلى المقابر و استحال إلى نوع من أداء الواجب، فيه الحزن، نعم، لكنه تناهى إلى كمن عقد صفقة مع الفقد و لا أعلم لم سررت بذلك.

أنفض الجمع و راح كل حي إلى سبيله و أويت إلى الفراش متنازعاً و

مكروباً و أمضيت الليل في التصارع مع قوى مجهولة لأجنّب حواسي استعادة ما سمعته و ما رأيته، لكن الحشرجة الجريحة أمضت الليل كله في تصعيد تيارات من الهلع ما كنت أحسب أن الروح تنطوي عليها، أما صورة اللطخات فقد نكّلت بروحي و قلبي و عقلي و جسدي جميعاً.

مرت الأيام و نُسيّ أمر الفتى الذي غادر، و لكنني أحياناً كنت أذكر اللطخات التي على الكفن فأقشعرّ، و عندما استعيد الصوت الذي رمى سهمه صوبي قبل المنعطف فإن جسدي يبرد و أكف عن الحركة و أشخص في الفراغ كالمذهول.

و ذات يوم صادفتني الأم الشابة و هي في طريقها إلى السوق و كان الزوج الذي يعمل بالخارج قد غادر الآن و حاذتني فغضضت الطرف و حييتها فردت بصوت لا رابط بينه و بين ذلك الصوت غير أنه صادر عنها، و في الصيف التالي أخذ الدخان يتصاعد من جهة دارهم التي عندما أحاذيها تلفحني الروائح المدغدغة المستفزة التي تفعل بالعزاب و المتزوجين جميعاً الأفاعيل.

إلتأم شمل روحي قليلاً و الآن اتأمل الحال فإذا الحشرجة التي دهمتني ذلك الليل أصداء بعيدة لا يمكن تمييزها، و تلك اللطخات بت قادراً على تذكرها كألوان لا يمكن أن تكتمل لوحة الحياة بدونها، و عندما صادفتني مرة أخرى وقت الغروب، بدت مثل شخوص الأحلام، و كانت تفوح بالعطر الفاغم و يشيع من عينيها بريق بهجات تهيئها للقادم من وراء البحار، انعقد لساني و خرجت التحية مني بعد تخطيها إياي بمسافة ليست بالهينة، فأدركت أني اشتهيها و لم أخجل من ذلك.

إنه الذهب. يريدون الاستيلاء عليه و كنزه و التمنطق به و التشدق و الظهور بمظهر من يعرف الذهب و من له علاقة جيدة مع الذهب. إنني غاضب و هناك غُصة في حلقي لكن يجب أن أفرغ من حكاية الذهب أولاً. ربما غضبي سببه هو الذهب نفسه لكنني لا أعرف له سبباً محدداً و قد تعبت من مسألة الأسباب. المهم في الأمر إنهم لا يكفون عن البردبة و الجقلبة و يسعون إلى السعي في الأرض كما لو كانوا رجالاً و نساءً من ذهب. أقضي اليوم في التجوال و التحديق الغاضب في الفترينات. عقلي في نظرهم ذهب و في عقلي منجم ذهب. كل شاعر هو رعديد بالضرورة. ترتعد فرائصه و هو صياد واقع في الشراك التي نصبها لفرائسه. في الحقيقة إنني أحياناً أكاد أعرف أسباب ذلك الغضب. المرأة التي تدير الماخور الذي تسللت إليه ذات يوم لها سن ذهبية، مخلبها ذهبي و قالت إن هناك بنت جديدة صفراء مثل الذهب. الشرطة التي أطبقت عندما كانت المديرة تقول إن بنتها الجديدة ذهب مجمر نقلت رحلة التنقيب إلى مكان آخر. صفعني النقيب بينما بصري معلق بدبابيره الذهبية. و في الزنزانة وجدت نفسي بصحبة رجال تخصصوا في كسر محلات الذهب. يتكلمون عن الذهب في أوقات صحوهم و يهلوسون به في نومهم. و هكذا نلاحظ إن الذهب لا يترك لي وهلة لأرتاح، كأنه

ينقّب عني. أولئك المتخصصون في الحبس بدا عليهم الضيق عندما اكتشفوا إنني تسحبت قريباً منهم لأنصت لهمسهم الخافت و كان عن الذهب. نفس الضيق الذي يبدو على حراس المحلات التي أدوام على إلصاق وجهي بفترياتها. و نفس الذي كان يحدث هناك حدث في الحبس. حدجني أحدهم بنظرة قوية. تظاهرت بالتمدد و التشاغل بتأمل السقف و لم تكن حركة موفقة للتحايل على متخصصين عتاة. قام الذي حدجني و جرني من رجلي إلى الركن. الرحلة كانت شاقة لأن الأرضية صلبة و غير ممهدة. انتظرت هناك ريثما تخفت الآلام الناتجة عن تظلط الظهر و تسلخه. زحفت كما يفعل الجنود في الجبهة متفانياً في الدنو مرة أخرى. الذهب لا يتظلط و لا يتسلخ. النار تزيده جودة و وجوداً. كفوا عن الهمس و أخذوا يتبادلون النظرات فيما بينهم ثم ناحيتي. كنت زاحفاً و جندياً فقد سلاحه فزحف قريباً من خنادف العدو و بقي هناك منتظراً وقوعه في الأسر. كفوا عن تبادل النظرات و صوبوا أبصارهم إلى السقف ثم و في لحظة واحدة و بصوت واحد انطلقت منهم قهقهات مجلجلة. استغرقت عملية القهقهة زمناً طويلاً و كنت منكفئاً على بطني اتابع ضحكهم بالنظرات و البسمات البلهاء التي يتابع بها المشجع لاعبيه المفضلين يحتفلون بالفوز. و عندما هدأوا تشتتوا في إرجاء المكان الضيق و وجوههم إلى السقف. و في هدأة الليل كانت تصدر من هنا و هناك ضحكة قصيرة و سعال طفيف. كنت reptile قريب من الأرض كما ينبغي و رمتالياً بغير مواهب رمتلة حقيقية رمتالياً أرستقراطياً إن شئت قريب من الأرض جداً اتابع ضحكات الرجال و سعلاتهم القصيرة بإجلال. ضحكت ضحكة صغيرة و جافة اتبعتها بسعلة لها حراشف و طفقت أكلم

نفسي بالرندوق. الزنجوج مكمك الفقة. و أيضاً شردم باه موكا موكا. و يا أب قلب لا. جردقة مسخّنة في الجردل. و ووك وروروك لبان مفروك. و كاك و كيك و كوك ثم كاك كاك كاك. مياه راكدة و دجاجة تكاكي. دجاجة تبيض ذهباً لا أذبحها و لا أبيعها. أعلمها السباحة و لا أضعها في قفص و لو كان من ذهب. كلاموكس. و سمكة أيضاً. ذهبية قطع شك. أحفر البركة كيفما اتفق و أرد النهر لجلب الماء. يبدو إن سمكة واحدة أفضل من مجموعة أسماك. أصطادها بنفسي. اغرس الحربة في طين المستنقعات و أصيح كُج كُج كُج كما هو الحال مع القبائل النيلية. استلّ الحربة من الوحل فتفرفر سمكتي العزيزة تحت الضوء الاستوائي الوهاج. السمكة الذهبية ينعكس عليها شعاع الشمس الذهبي فارتعش من الفرح و أزغرد. لكن الصنارة أفضل من الحربة. السمكة ماتت و عليّ أن أعيد العملية برمتها. أفضل قضاء الليل مع تلك الحيوانات الذهبية. الدجاجة تكاكي و السمكة ترمح جيئة و ذهاباً و أنا ساكن و لا اتحرك. السمكة الذهبية هي الأخرى ليست للبيع و لكنني سأحاول أن أخلق بينها و بين الدجاجة التي تبيض ذهباً نوعاً من العلاقة. يجب أن أبعد القطط و الثعالب التي يمكن أن تتسلل من هذه الجهات أو تلك. ظللت على تلك الوضعية قريباً من الأرض و من شخير الرجال المتخصصين. في الوضعيات التي من هذا القبيل اجد راحة كبرى و أرندق كما يحلو لي. كاجكور زمبا جمبا سكّرج. كنجكور طيط طوط. و الذهب لا يدعني و شأني أبداً. دائماً ما اتلقى اللوم جراء أشياء أقوم بها و أحياناً اتلقى اللوم تقريعاً على أمور قصرت عن القيام بها و في كثير من الأحيان اُلام بدون أن يكون هناك ما يستوجب النقة و وجع الرأس حسب رأيّ. العالم يتنازعه

معسكران: معسكر الذين يلقون اللوم و معسكر الذين يقع اللوم عليهم و أنا أبغض المعسكرين كليهما و آمل أن يطبق عليهما الخاسوف لأن الفكرة سخيفة و تتلخص في أن الجميع يصارعون و هدفهم النهائي الإنضواء تحت لواء المعسكر الأول: معسكر الإلقاء. لو طلبوا رأيّ لاقترحت عليهم معسكراً للاستلقاء. الكنجروت water جُمبلغ. أنا لا أقوم بشيء أصلاً و عندما قلت لهم إن الذهب لا يدعني و شأني ضحكوا و ظنوا إنني أرغب في الزواج و تمنوا لي التوفيق و خبطوا على منكبي و غمزوا و استمروا في القهقهوت حتي دمعت أعينهم. أنا لا احتاج إلى الضحك بهذه الطريقة و لكي أثبت أنني لست منهم بل محسوباً عليهم خرجت في رحلة التنقيب هذه. أعرف أن هذه الرحلة لا تهدف إلى شيء و لكن لأن الناس لا يمكنهم أن يدعوا مسألة الالتصاق بزجاج الفترينات على النحو الذي درجت عليه تمرّ هكذا مرور الكرام فقد بت ملزماً بالوجوجة أجأجأة و الجمجمة جم جم و النخنخة نف نف في وجوههم كلما أمسكوا بي و في ظني إن هذا قد يثبت شيئاً أو أنه من شأنه إلغاء ضرورة الإثبات، لكن ذلك كله أفلح في تأكيد يقيني القديم المتجدد و المتمثل في أن الأشياء التي يمكن إثباتها هي تلك التي لا حاجة لي بها. هناك ورل يتربص بسمكتي الذهبية و دجاجتي التي تبيض ذهباً. سأنهض و ألقنه درساً. لكنني لا أريد القيام، لا أرغب في تغيير هذه الوضعيةالتي تجعلني قريب من الأرض هكذا. ثورة الغضب همدت. تناتبني أمواج الغضب العاتي عندما يمنعونني من إلصاق وجهي بزجاج الفترينات. يسحبونني بعيداً و يلوحون في وجهي بالسبابات. أتلقى عدداً محترماً من الصفعات و الركلات. يحدث ذلك عادة عندما انطلق في الكلام

في محاولة لشرح الأسباب التي تدفع بي للالتصاق بزجاج الفترينات على ذلك النحو. لكنهم غاضبون و لا يريدون شرحاً و لا توضيحاً فالأمر واضح و لا يحتاج سوى مزيد من الصفعات تعقبها مجموعة من الركلات انكفيء إثرها على وجهي. من جانبي أظل مستمراً في الشرح و التوضيح منكفئاً على وجهي غاضباً زاحفاً للاحتماء من وهج الشمس بظل قريب. ثم اكتشفت إن السكوت من ذهب فذات مرة سحبوني بعيداً عن الزجاج فأنصعت صياعة تامة للسواعد القوية التي أطبقت علي فلما وجدوني متدلقناً و صامتاً أخلوا سبيلي على بعد مسافة مناسبة من الزجاج الذي يحرسون. لا يمكنني الفراغ من حكاية الذهب أبداً. و أظل زبوناً للزنازين و العنابر. و للزناجر و الدرادر و الزنابر. صدر نشيج خافت من أحد الرجال المتخصصين. تماماً مثل نشيج الأطفال عندما يضيع منهم أهلهم في الزحام. و اجتمع نشيجان. فثلاثة. و كان نشيج الإنشاج. و محمولاً على مويجات نشيجهم صار بإمكاني القول إن الإنسان لا يمكنه الارتباط بالشيء الذي يريد الارتباط به بصورة نهائية و حاسمة أبداً. ارتجلت مجموعة من النهنهات لافتتح بها مساهمتي في فاصل النواح الخافت فصدرت عوضاً عنها سلسلة ضحكات سريعة و متقطعة كلقيمات اختطفها من صحن تسللت إليه يدي بدون وجه حق.

خرجنا من الحبس بعد مدة من الزمن لا أعلم مقدارها و كنت بحال مزرية كما هو الحال دائماً و كما هو الحال كان الذهب يتربص بي و يتوعدني و بدوري كنت حانقاً و في كامل الاستعداد لامتطاء الحمار الذهبي و البغل و السلحفاة. طأطأت رأسي و مشيت ناحية سوق الذهب. البردلوب لا يمكنه أن يثنيني عن وجهتي و لا حتى الخندقوق بمن فيهم كل القابضين على

مقاليد الجهجهوت. صحيح أن أسمالي بالية البلى و هيئتي مزرية الإزراء لكن ذلك ليس كافياً لإقصائي عن رحلة التنقيب التي استغرقت جُل سنوات العمر. لا أعرف بالضبط أي الطرق اسلك و لكنني لن أسأل المارة فذات مرة و في موقف يشبه هذا استوقفت أحدهم و كان يشبه سمكة القرقور عن سوق الذهب فأحدث بضحكته القرقورية جلبغة كبيرة قبل أن يقول يمكنني أن أدلك على زريبة الماشية و سبح منتشياً يضرب كفاً بكف و ذيله يرقص بهجة و حبورا.

ينتظرني الكثير من الزجر ، لكن حكاية الذهب هذه لا تأبه لا بالزجر و لا بالزنجروت. إذا حاولوا زحزحتي عنها فإنها لن تسمح بذلك الزحزحوت. الشوارع التي أعبر، يعبرها عابرون ألمح في نظراتهم ضجيج أحلام الدغدغاء و عجيج رغبات الدغدغوت. الأصوات شديدة و تزداد شدةً و هديراً كلما دنوت مما أحسبه المركز. مع كل خطوة أخطوها يتضاعف بريق الأصفر الوهاج الذي لا تكف عيني السادسة عشر عن التحديق به. أريد الانتهاء من هذه المسألة فوراً لكن الزحام الكثيف يعرقلني و يحدّ من نمو الخلايا الطرزانية في روحي و جسدي معاً. لو إنها تُركت لتنمو نمواً طبيعياً لطرزنت الآن فوق هذه الحشود صوب الهدف فوراً بدون أي لف أو دوران. تذكرت مناطحة كباش كبيرة دارت أمامي ذات يوم. الجمهور هلل و صفّر للكبش البني بينما اللعنات انصبت على الأسود. كانت مبارزة ضخمة انتهت بذبح الكبشين كليهما و تناهش الجمهور لحمهما. كلما أحسست بالدنو من السوق كانت الأشياء تتجهم و تتجهنم. البنايات المتراصة تنظر إلى الحشود بصلف من يعرف أنه تسبب في انقراض الكائنات بتربعه على

فضائها الحيوي بدون وجه حق. وساوس الذهب لا تدعني في كل حال. أحاول التنصت على وسوسة الحلي التي تطوق سوق الجواري الشحمانات. يرقصن على إيقاع المواليا فيهتز الأمير و تهتز الكأس الذهبية التي لا يرتشف منها. الذهب هو الذهب. الجواري ملابسهن شفافة و مقصبة بالذهب. ذلك الأمير خاض حروبه متسربلاً بدرع من ذهب. لم يخسر حرباً قط. الدرع كان يعشي أبصار الأعداء. الأمراء يستمدون سلطتهم الغاشمة و الطاشمة من الأصفر الوهواج. لو كنت أنقّب عن النفط لاعتمرت تلك الخوذة التي تشبه الكورية. لكن التنقيب عن الذهب لا يحتاج لخوذة لأنه مهمة دفعتني إليها كواريك و ثكلبات صادرة من أعماق الروح بسبب الكادوك الذي ألقى بها في مهب الريح. لا أعلم من أين حصلت على الشبشب الذي انتعله لكنه يعوقني عن المشي. لم أكف عن السير رغم العرقلة الظاهرة التي أجدها من كل شيء و في كل شيء. أنني اتسكع داخلي أكثر مما اتسكع في الخارج. حكاية الذهب التي تسكنني أكبر من قارتيّ آسيا و أفريقيا مجتمعتين و لم انجز من الرحلة ما يعادل المسافة بين القضارف و بني شنقول بعد. الناس يُقبلون و يدبرون من كلّ الفجاب و يفجون الغبار الآتي من كلّ فجة. كانت هناك شفاطات عملاقة تشلفط الماء و الهواء و روافع مديدة تتعالي فوق البنايات مثل ديناصوارات تم ترويضها لتكون في خدمة هذه الحداثة المكلفتة. اقتربت رويداً رويداً فلاحت الفترينات خلل الزحام و الغبار فتملكتني الرعشة المهولة و ما عدت أملك من أمر نفسي شيئاً. ركضت صوب الفترينة و قبل القفز على المصطبة العالية اشتعل ظهري من الألم و وقعت على وجهي فشججت رأسي. ضربني الشرطي ضربة أخف وقعاً من

السابقة، و تلويت قليلاً و أنا متكوم هناك بينما الشرطي متأهب للانقضاض عليّ بالخرطوم الأسود. اجتمع الناس فانتهرهم الشرطي و أمسك بقفاي و اقتادني إلى الكبسولة القريبة حيث توالت الصفعات و الركلات فتدلقنت و لم أصدر صوتاً. استبقوني في الكبسولة لبقية اليوم و بعد أن ضاقوا بي ألقوا بي خارج منطقة الفترينات و ابتعدت عن السوق و أنا أقلب في رأسي الكيفية التي يمكنني بها إقناع الخلق أنني استمد طاقات روحية لا أول لها و لا آخر من تأمل الذهب و أنني لا أخطط لسرقته أو امتلاكه كما يفعلون هم.

محاولة انتماء

ما زال أمامي ذلك الميدان لأعبره، لكنه أخذ يبالغ في الاتساع. أيضاً برك الماء التي ينبغي تجنبها و الانغراز في الطين بين فينة و أخرى يضاعفان صعوبة المهمة. منذ زمن ما عدت أذكره أصبح كل ما أقوم به هو عبارة عن مهمة صعبة. تتطاير من حولي حشرات صغيرة لا تكف عن ملاحقتي و مرافقتي و بعضها يحط على وجهي و ثيابي و عندما أحاول طردها يزداد إلحاحها. الصرصور صفيره ثابت و نقيق الضفادع صبور و حزين. أصغيت جيداً علّي أميز صوت ضفدع مبحوح أو ضفدعة في صوتها غنة لكن النقيق الذي يتصاعد في الفضاء هو النقيق المعتاد: نقيق بلا زيادة و لا نقصان. الخريف دائماً يأتي بحشرات جديدة لنج لكن النقيق ثابت و لا يتبدل. استطيع التخمين أن هناك ضفادع سمينة و أخرى نحيلة، ضفادع مراهقة و أخرى هرمة لكن الضفادع كلها في النهاية لا يصدر عنها سوى ذلك الصوت. حكاية الضفادع طويلة عريضة لا تنتهي و الحشرات اللحوحة حالفة بدين إيمانها أن لا تتركني و شأني.

الميدان هذا ربما مساحته هكتار، و ربما هكتارات عديدة، ربما أفدنة، و صحراء و عندما دخلته كنت أحسب أن دخول الميدان مثل الخروج منه، لكنني الآن عالق وسط برك الطين الكثيرة، أجوب الجزر الصغيرة التي تحيط

بها البرك التي لا حصر لها، و هذه البرك تصدر عنها أصوات من ذلك النوع الذي تصدره كائنات البرك، كلها أصوات صغيرة لبرك صغيرة تحيط بها جزر صغيرة و تحتلها كائنات صغيرة بالتمام و الكمال، اسمع دائماً صوت سباحة صغير، صوت قفزة صغيرة في الماء، و لا أحسب أنها الضفادع لأنها منشغلة جداً بالنقيق، و أحسب أنها لا تتحرك أوان النقيق و لكن ما أدراني، ربما هي تجمع بين النقيق و الحركة معاً، و ما أعرفه أن الضفادع كسولة و لسانها الطويل يشجعها على البقاء في مكان واحد لساعات طويلة، و ربما لأيام، يجد الضفدع حجراً في وسط البركة فيقبع عليه، يقبع على الحجر و لا يجد حرجاً في ذلك، و على العموم لماذا الحرج و لسانه على أهبة الاستعداد، يلتقط أبو الدقيق، و يلتقط الجراد، مسافة متر، و ربما أبعد يمتد هذا اللسان بسرعة فائقة، و بحركة مدهشة غاية الإدهاش يختفي الكائن الصغير الطائر، و الضفدع على الحجر، لا يغادره. لو كان لي مثل هذا اللسان ماذا كنت سأفعل به. قطعاً لن التقط الكائنات الصغيرة الطائرة. ربما أعانني على خوض نقاش حام عن مباراة في كرة القدم أو حتى السلة و التنس. أظل ألغلغ ليلاً و نهاراً فلا يجرؤ أحد على الدخول معي في أي نوع من النقاشات. السياسة، الفن، الأدب و ابتدع مواضيع للنقاش من بنات أفكاري و لا أسكت ما دام لساني بذلك الطول. و ماذا تراني فاعلٌ بذلك اللسان أيضاً؟ لا بد أن لساناً طويلاً ما ذا فائدة عظيمة، و يمنح ميزات لا يكون توفرها سهلاً. يا زول سأعمل عمايل و ألحس أشياء لا يتصورها العقل. لكن التمساح لا لسان له. هكذا قالوا لنا. و سرت في جسدي قشعريرة ما عندما طرأ التمساح على تفكيري هكذا بدون سابق موعد. ربما وسط هذا الأرخبيل من الجزر و البرك، هناك تمساح حقود

لابد يتربص بي الدوائر. سيقرمشني في ثوان معدودة، و لن يطراني طاري بعدها. يا ويلاه، كيف يمكنني الخروج من هذا المأزق؟ تلك الأفكار أربكتني، و صرفتني عن البحث الدؤوب عن اليابسة و تجنب البرك، فوطئت قدمي بركة على أنها يابسة، فنط ضفدع فاراً بجلده بعد أن قرأ أفكاري عن اللسان الطويل. لماذا خاف الضفدع على جلده بهذا الشكل؟ و ربما قرأ كلامي عن التمساح ففر بجلده هكذا.

كل كائن له جلد يخاف عليه. هكذا علمونا أيضاً.

التمساح يتربص بي الدوائر و ربما أنني متورط في مراح للتماسيح فهي في هذه الحالة لا تتربص بي الدوائر فقط، بل المربعات و المكعبات و المثلثات و كل ما يخطر على البال من أشكال هندسية. الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين، هكذا علمونا، لكنهم نسوا تعليمنا كيف تجد خطاً مستقيماً في ليلة كهذه و ربما علمونا ذلك في الفترة التي واظبت فيها على الدكوك، حتى شارفت على نيل جائزة الطالب المثالي في دك الحصص و التسكع ليل نهار في أرض المليون ميل مربع. أحسست بأنني في حاجة إلى من يواسيني و يخفف عني كل هذا الكرب الذي يتملكني فشرعت في إطلاق نداءات استغاثة عاجلة، و بينما أصيح صمتت الضفادع فجأة و كفت كائنات البرك عن التقافز. فأخذت أتلو قصيدة من الشعر العمودي لقنوها لنا ذات يوم و بدا أن القصيدة أضجرتها فعاد الجميع للنقيق و التقافز كأن شيئاً لم يكن.

و ماذا يمكنني أن أفعل و أنا ضائع هكذا؟ الضياع في الليل أرحم منه في النهار و استطيع أن أذكر لك الاختلافات بكل سهولة. ضياع النهار شبيه

بالداء العضال الذي لا شفاء منه، احتضار طويل تحت الوهج الحامي، أما الضياع في الليل فهو إلى الموت أقرب و شتان ثم شتان ما بين الاحتضار خصوصاً إذا كان طويلاً و أخرقاً و الموت خصوصاً إذا كان أخرساً في جنح الظلام.

لاحظت أن نيتي في مغادرة الميدان قد بدأت تضعف و لأن الأعمال بالنيات فقد أقوم هذه الليلة بوضع نوتة موسيقية للنقيق. أين أجد الأوراق و الأقلام و الأوركسترأ. هذه كلها (accessories) المهم أن تنوجد الأشياء في الرأس، بداخل الدماغ بحيث تظل تعذبك العمر كله. لكن أبحث عن الورق لتضعها عليه و ترتاح. و لماذا نقلق راحة الورق في هذا الليل الذي انضم فيه الهواء إلى قائمة الجمادات. الهواء تعب و كف عن الحركة. كذلك النسائم التي يُفتَرض أنها تهب في ليل الخريف. الهواء له قرون و هو يروح و يجيء، و له قرون ينطح بها الفراغ و ما يعترض طريقه من موجودات، ربما تعب، ربما وهن القرن، ربما نائم الآن. يا أخي من حقه أن يستريح. الهواء ينطح الجبال بقرونه و يجرجر السحاب في الفضاء و يتعارك مع الأمواج، و مهنته قاسية و تحتاج إلى لياقة عالية و نفس طويل فلا بأس من أن يستريح. و الضفادع كذلك تحتاج إلى الراحة لكن يبدو أنها لا تريد ذلك الآن فقد تصاعدت وتيرة نقيقها مع تلك الأفكار التي أقلبها بينما أنا أفجخ في الطين و قد لاحظتُ بأنني كلما كونت فكرة ما عن الضفادع صدرت عنها ردة فعل ما فمن أين أتت هذه الضفادع التي تقرأ الأفكار. و الله كائنات البرك جميعها لطيفة و ظريفة لكنها لا تأمننا نحن البشر و معها ألف حق في ذلك و لكن آمل أن لا تزعجهم أفكاري التي تتسكع معي في هذا الميدان.

السماء فوقي متسخة بعض الشيء و مشرّبة بحمرة خفيفة تطعنها التماعات الاجسام السماوية الحمقاء. السماء عكرة و مكفهرة و ذلك الضوء القادم من الاجسام الحمقاء يجعل البرك التي تحيط بي تلمتع التماعات خفيفة و متقطعة. انغرست قدمي في الوحل مرة جديدة و أنا منشغل بالتحديق في السماء. بدأت انتبه للروائح الصغيرة التي للميدان. رائحة بعر مبلول، رائحة سمكية هادئة، و أشباح روائح أخرى، ربما تأتي من بعيد و ربما اتخيلها. تذكرت بيت الشعر الذي علمونا إياه و القائل بضرورة التعرف على موطيء القدم قبل الوطء، و طأطأت راسي لأن كل الأشياء التي رفضتها و هربت منها تعود لتذكرني بنفسها بطريقة منظمة أعجز عن التصدي لها و الحد منها و القضاء عليها. من أساسه أنا لا أريد التصدي لشيء أو الحد من شيء أو القضاء على شيء، لكنها أفكار تحوم هكذا في ميدان الجزر الصغيرة و البرك الموزعة بطريقة تنم على أن هناك من يشرف على توزيعها، و تحت سماء متسخة قليلاً تصدر منها التماعات خافتة تعرف البرك كيف تتحاور معها. يبقي أمر تلك الحشرات الصغيرة التي تحوم حولي. لها أصوات صغيرة و لحوحة و تعشق تلك الحشرات الأذن عشقاً محيراً. من الإصرار الذي تحوم به حول أذني أجزم أن لديها رسالة مهمة تريد نقلها. هناك حشرات طائرة أكبر قليلاً، معتدة بنفسها و قد تصدم بمن يتسكع في مثل هذا الميدان فجأة و أكاد أجزم أنني عقب كل اصطدام بمثل تلك اليعاسيب و أبو الدقايق و الجرادات أكاد أسمع الشتائم تنهال علي من نوافذ مركباتها. للدقة يحدث ذلك التخيل في اللحظة التي ينجح فيها الكائن الطائر الصغير في تجنب الاصطدام بالمتسكع في اللحظة الأخيرة. نعود للحشرات الصغيرة عاشقة

الأذن. كل هذا الطنين و الزن يبلبلني بلبالاً و يحيرني و أنا أصلاً مبلبل و متحير و trapped. كلما صغر الكائن، كلما كانت حمولته من الرسائل المحتاجة إلى تبليغ أكبر. طنين مهذب و أزيز رواقي يصاحبني بينما أخطيء الوطء في كل مرة. ماذا كانت الحشرات تهمس في أذني؟ ربما هي تحثني لأنفد بجلدي، و ربما تلقي علي آخر النكات، و ربما هي توبخني على الأفكار الحمقاء التي تدور معي و تنغرس في الوحل، توبخني على هذا الوهم الذي نعيش فيه نحن البشر بأن كل شيء خلق من أجلنا ربما كانت تقول لي: يا وهم متى تتركون لنا هذا الكوكب؟ هناك أسباب وجيهة تجعلني أرجح أن هذا الإزيز إن كان يحمل رسالة فهي رسالة تحثني و تحثنا نحن البشر للتخلي عن ذلك الوهم الذي يجعلنا نعتقد أننا الأهم، و أن كل ما يدور من حولنا له علاقة بنا و هو موجه لنا إن لم نكن نحن من يتحكم فيه. ببساطة هذا الأزيز يطردني من مملكة دخلتها عن طريق الخطأ. و النقيق و كل الأصوات و الروائح التي للميدان متضافرة في حثي على التخلي عن انتماء أريد أن أحصل عليه بدون وجه حق. من ينتمي يترك التحليل و التفكير جانباً. إذا أردت الانتماء لعالم هذا الميدان فعلي أن اتحول إلى كائن صغير مثلهم و أن أكف عن الشعور بأنني واقع في ورطة و ما إلى ذلك. سمعت نقيقاً مؤيداً للفكرة الأخيرة و تساءلت كما هي عادة البشر لماذا يريدونني أن انتمي إليهم و أنا الهارب من كل انتماء و أرفض فكرة الانتماء نفسها. و من قال أنهم يريدون انتمائي؟ ربما يريد النقيق إخباري بأن أفكاري الملطخة بالوحل لا طائل منها. ربما يخبرني النقيق أن مجرد محاولة التدقيق في التعرف على معالم روائح المكان و أصواته و كائناته هو إبداء رغبة في الانتماء. كأن لسان حالهم يقول: بالله عليك لماذا

تلف و تدور هكذا؟ ربما لسان حالهم يتسائل: خلاصْ، كمّلتو الصلبطة و اللبط فيما بينكم و جايين تتلبطوا و تتسلبطوا فينا؟! بِس!! و انغرست في بركة جديدة كانت تلمع. أنطفأت البركة و تصاعد النقيق. لماذا تلمع البرك و تنطفيء بمقدار كأنها أجسام سماوية؟ جاء الجواب على شكل طنين فسرته بأن هذا لا يهمك، أنت دخلك شنو؟!

أخذ الانسجام المبدئي الذي استشعرته في أول الليل مع الميدان و كائناته يتبدد و ثقل جسمي و تباطأ تنفسي. صمتت جميع الأصوات و همدت الروائح و ما عدت أسمع الطنين. انطفأت البرك جميعها على حين غرة و انقطع التيار. لم أرفع بصري إلى السماء خشية أن أجد ما قد حدثتني به نفسي قد تحقق. و في محاولة أخيرة لانقاذ ما يمكن انقاذه انكفأت بوجهي في الطين. تمرغت في الوحل و استويت على الرماد. أخذت أزحف زحفاً بطيئاً في اتجاهات مختلفة. ثم أخذ الايقاع يتسارع رويداً رويدا. مخرت الطين بذراعيّ و وجهي و جميع جسدي باحثاً عن قشة اتعلق بها. صرخت: النجدة ، النجدة ، النجدة. بدا لي أن لساني طال و أنا أزعق بذلك النداء في ذلك الليل البهيم و وصلتني روائح أظن أنني شممت مثلها لحظة مولدي. عندما تناهي إلى سمعي صوت النقيق مرة أخرى كنت بين الصحو و الأغماء، مكباً على وجهي كأنني ألعق الطين في انتظار كائن طائر صغير سيلتقطه اللسان الذي نبت لي.

ما كان العشم يا كلاكلات

عندما صعد جعفر كديت إلى الحافلة المتجهة إلى الكلاكلة ذات عصر

قبل ثلاث سنوات ما كان يعلم أن حياته كلها ستنقلب رأساً على عقب بعد ذلك اليوم. على غير العادة كانت المواصلات متوفرة و بدا لجعفر أن الدنيا رائقة المزاج فأخذ يتابع حركة الناس من النافذة ريثما يكتمل عدد الركاب. تغاضى عن وجه الشحاد الذي أطل و صبر على الصبي الذي يبيع المناديل و الشكلت و البسكويت الذي كان يلوح ببضاعته في وجهه و يصيح قرب أذنه على نحو يفور الدم و لم يتهم الكمساري أو السائق بالجرجرة كعادته كلما ركب حافلة أزورّ عنها الركاب بل تعامل مع تلك الأمور و كأنها لا تعنيه و بدا و كأنه على استعداد للانتظار عمراً كاملاً دون أن تصدر عنه نأمة. جعفر استغرب الحالة التي هو عليها في تلك اللحظات: السكينة التي حلّت عليه فجأة، و هذا التفاؤل و الإحساس بأن أمراً جيداً و جديداً في سبيله إلى التحقق و أن الأمور تمام التمام، رغم العطالة، و الإحساس الراسخ بأن الحياة متخصصة في إدارة ظهرها له، و الواجب الذي يحتم عليه مد يد العون لأم تبيع الكسرة في السوق و أخت لا يعلم ما مصيرها إن لم يطرق الباب ود حلال يبحث عن السترة ، و أمور أخرى كثيرة، صغيرة، لكنها منغّصة، تجعله يشعر بالشلل يزحف على جسده و عقله كلما حاول التعمّق بالتفكير فيها، لكنه سرعان ما انصرف إلى الانشغال ثانيةً بمتابعة حركة الناس و المركبات في هذه المحطة الوسطى مستسلماً للطمأنينة الرؤوفة التي نزلت عليه بدون سابق موعد. و بينما ينظر عبر النافذة اتفق أن صعدت إلى الحافلة فتاة حسنة القوام، بعيون واسعة و إسكيرت جينز محكم و شنطة قماش كاجوال و خيل لجعفر أنها حيته بابتسامة، قبل أن تختار المقعد المنفرد الموازي لمقعده الثنائي.

إذا عبرنا الزمن قافزين لتقصي أخبار جعفر كديت بعد ثلاثة الأعوام تلك لوجدناه الآن في المحطة الوسطى ذاتها التي كان يتابع هسيسها و حثيثها من نافذة حافلة رابضة في انتظار الركاب، لكنه الآن بائع مجازفات متجول، يمضي سحابة نهاره و جزء من ليله في التجول في تلك المحطة و على كتفه خُرج محمل بصناديق البسكويت و التشز و الشكلت و مجموعة من الأشياء التي تشكل الهتش الموضوعي الذي يمثّل رأس مال متسبب ينتزع رزقه باعتراض سبيل كل من يعبر، ماداً صندوق الشكلت أو المناديل بكفّ و الكفُّ الأخرى على الكتف تحكم قبضتها على الكيس و بين فينة و أخرى تصدر عنه صيحات: هاك الشكلت دة يا . . . هذا إذا لم ينتصب مستقيماً كالألف الأحمر، مؤدياً تحية عسكرية لقائد عام لا يملك أمامه إلا الطاعة و الامتثال و الخضوع، و تلك التحية جعلته من المعالم الحية للمحطة الوسطى و هي التي ألصقت باسمه ذلك اللقب العسكري الذي بات يُعرف به أكثر مما باسمه.

و نعود من قفزتنا تلك إلى الحافلة التي ربضت قبل ثلاث سنوات و على متنها جعفر كديت و البنت التي صعدت لتوها و قلبت في شنطتها قليلاً قبل أن تستل الموبايل و طقم الأذن لتنشغل بالمذياع عن الدنيا و ما فيها. لا يملك جعفر كديت موبايل و النقود التي سيدفعها ثمناً لرحلة الكلاكلة استلفها من أمه و قد أخبرها أن المشوار على درجة عالية من الأهمية، فقد يتمخض عن شغلانة تنتشله من بالوعة العطالة التي يتعفن فيها منذ مغادرة المدرسة.

كانت هبة و هو اسم الفتاة التي صعدت ساهمة قليلاً و متشاغلة عمداً عن النظرات الموازية الجائعة التي تلتهمها و هي نظرات كالجائحة التي لا تبقى و لا تذر و إذا تأملت ملامح جعفر كديت في تلك اللحظات فإنك واقع على ذلك التعبير الذي تجده على وجه أم محروقة الحشا أو ما تجده على وجه طفل انتزعوه من أمه و سافروا به في صحراء واسعة، أو شيء من هذا القبيل لكننا سنضطرّ إلي القفز عبر الزمن مرة ثانية لنبحث عن هبوية بعد ثلاث سنوات من سنة الحافلة و المحطة الوسطى و من عجب أننا نجدها تخطر في واحد من التراكات الموازية في تلك المحطة و هي في طريقها إلى الجامعة و قد غادرت مراحل البرلمة و استوت في السنيرة تنتظر التخرج بعد شهور قليلة.

وجهها مليح، و الشامة بين الأنف و الشفة العليا تزيدها وسامة. الفولدر المضموم إلى صدرها تُزيّنُه صورة ساحلية من الكاريبي. الخطوة أسفل الإسكيرت من الخلف تكشف كورنيش القطعة الداخلية الرمادية و الإسكيرت مُجبّص ليكشف الرقم مثل عِرق الصُداع على جبين مسطول لم ينسطل بعد.

عَبرتْ زحام المحطة الوسطى سعيدة بالعيون التي تتعلق بها و تتسع من الدهشة و الإعجاب. أحياناً صافرة صغيرة تجعلها تتبسم على عجل لتعود و تلبس قناع السهوم و اللامبالاة. بعد كل عشرين خطوة كانت تقوم بحركة رائعة تتمثل في إعادة الطرحة إلى شعرها و التربيت على الشامة بظُفر السبابة المصبوغ بمناكير بمبي. سيارات الأتوس و الماتيز و الكور و البولو و الفيستو النظيفة و المظللة كانت تبطئ عند محاذاتها في معاكسة مكشوفة لا تطول.

باعة المياه كانوا يُصعِّدون من قعقعة كيزانهم عندما تمرّ بهم فكانت تُصعّرُ خدها.

لولا أن موقعنا العربي مجهجه لوجدت طريقها إلى السوبر إستار و الإستار أكاديمي أو أياً من برامج المسز وتلفزيون الواقع ممهداً. قد تتوافق عدتها و عتادها مع المزاج الأفريقي قليلاً لكن الأولى أن يظل موكبها سودانياً بحتاً. عندما تقع العين عليها فإن الأذن تلتقط من كاسيت مدفون في أعماق سحيقة صوت أبو داؤود الذهبي صادحاً بمن فريع البان و إذا التقت نظرتك بنظرتها فتذكرِ شعراً جمع الأسد مع الغزال في بيت واحد:هيبة أسد في عيون شدن. ربما الشاعر كان يصف عيون جدة لها بأب روف أو الملازمين أو المسالمة أو الكاملين أو الأبيض بارة و بالعكس و منها إلى سنكات و تقوم بينا العربية تودينا للسادة في ملكال و لمن نرجع دوّر بينا في الكلاكلات، أموت في اللفة، و يغسلوني في صنقعت و يدفونني في القبة . . . . . أو أبعد من ذلك بكثير، قبل كل تلك الأسماء جميعاً. مترفعة ترفعاً غير مصطنع و أقرب إلى خلاسية جامعة لأطياف تبحث عن ما يفرقها و قد جمعها التاريخ و الجغرافيا و الفيزياء و الفسيفساء في خارطة واحدة و في صحنٍ واحد يأبي مطعم السياسة إن يقدمه للزبائن الذين طال انتظارهم إلا محترقاً. الزبائن الآن تتعلق أنظارهم بها و قد نجحت في جعل مشوارها الصباحي إلى الجامعة موكباً وطنياً لا يقطع التلفزيون مسلسله اليومي ليعلن عنه. ماذا لو فعلوها: تهيب أمانة كذا بالتنسيق مع لجنة كذا و برعاية منسقية كيت و كيت بالمواطنين الشرفاء المشاركة في موكب البنت التي نجحت خطواتها في زرع حديقة مستحيلة في صحراء ميدان المليون مغرب و المليون مشوطن و مطوفش ومهضرب و مهوجس، على أن يكون

الحضور في تمام الساعة التي تضبط دقاتها على وقع حذاءها. و لكن ها هو الحضور مكتمل و لا حاجة لنا بإذاعة و لا تلفزيون و الفرجة حاضرة على أشدها هنا كما يقول معلقو مباريات كرة القدم المغاربة.

لكن كل هذا مما يدخل في باب كلام الطير في الباقير ففي التراك الموازي يزحف كديت خلال الزحام و هو لا يعلم أن التوازي الهندسي الفظيع لن يجمعه بهبوية تارة أخرى أبداً. لكنه في انتظار طلتها، لا يمنع نفسه من أداء التحية العسكرية لهيفاء التي تدرس الحاسوب و تضطرها جغرافيا المدينة المرتجلة إلى عبور المحطة الوسطى و هي في طريقها إلى الجامعة، أو غادة التي تشتغل في مكتب محاماة بعمارة في السوق العربي، أو أم زين التي تبيع الشاي تحت ظل شجرة غير بعيد عن السفارة الأمريكية، أو ريماز التي او سانيتا التي أو كل اللائي يُذكرنّه أن عدم غضّ الطرف عن فتاة من الكلاكلات في مركبة عامة، يحلّق بالإنسان في سماوات عجيبة قبل أن يقع من شاهق على قدوِّمه عندما تحين محطتها و يعلمه العض على الأصابع ندماً كلما حانت التفاته إلى الصيد الذي يرعى في المحطة الوسطى و في العربي و الأفرنجي. لذلك فإنك تسمعه يصيح بعد كل تحية عسكرية يؤديها لفتاة تعبره بمسافة مناسبة: ما كان العشم يا كلاكلات.

كن يبتسمن عندما يبلغ أسماعهن ذلك النداء المدني العسكري قبل أن يُصعرّن الخد على طريقة وزراء الدفاع عندما يتأهبون لإعلان الحرب، ثم يمضين لشأنهن.

ذهاب و إياب

اتجهت إلى وسط المدينة. المسافة حتى هناك طويلة بعض الشيء و تعودت على قطعها راجلاً كل يوم. النقود هي السبب. في جيبي القليل منها. لا وظيفة لدي، لا أمل في الحصول على وظيفة أيضاَ و فوق ذلك كله من العسير جداً تلقي المساعدة من أي جهة كانت. عبرت الجسر ببطء و أخذت استنشق بعمق في محاولة لإصطياد نسمة من النهر. دخان العربات كثيف و لا شيء غيره يمكن استنشاقه. كنت أسير على رصيف المشاة و اتوقف أحيانا لالتقاط الأنفاس و لتأمل المركبات و راكبيها. الذين يمتطون الحافلات وجوههم مكفهرة في الغالب أما الذين يقودون سياراتهم الخاصة فيظهرون أكثر ثقة بأنفسهم. بعد انتهاء فسحة التأمل أعاود المشي و ليس في رأسي أدنى فكرة عن الجهة التي أقصدها. ما أقصده هو أنني لن أجد جواباً إذا استوقفني أحدهم و سألني إلى أين أنت ذاهب. أكثر من ذلك لا أعرف ما سأفعله عندما أصل إلى الجهة الأخرى التي أقصدها الآن و لا أعلم لماذا أنا أسير على هذا النحو و لكن هل ذلك أمر مهم؟ إلى أين أنت ذاهب؟ ماذا تريد؟ هذه أسئلة لن التفت إليها، فقط سأواصل المشي. كل يوم تنهض هذه الأسئلة معي من النوم و ترافقني و تدور حولي و لكنني عاجلاً أو آجلاً أصرف تفكيري عنها و أواصل المسير.

في زمن سابق أذكر أنني كنت أنهض من النوم و أحمل (ماي كلير باك) المصنوعة في الصين من البلاستيك الشفاف و التي تحتوي على شهادتي الجامعية و مجموعة أخرى من الأوراق الثبوتية التي لا غنى عنها لشاب يبحث عن وظيفة، أحملها كل صباح و اتجه إلى المركز. أذهب بالمواصلات أحياناً، و أحياناً راجلاً كما هو الحال الآن. حاولت تذكر لونها و لكني فشلت، و حاولت تذكر محتوياتها بالتفصيل، فلم تسعفني الذاكرة. أين هي الآن؟ كم مر من الزمن منذ انقطعت عن حملها؟ لا أذكر. لا جدوى من التذكر، الأفضل المضي قُدماً. تبادلت نظرة سريعة مع الشرطي الذي يحرس مخرج الجسر. كل يوم أصادف شرطياً جديداً لكن الطريقة التي ينظرون بها للناس واحدة. يخيل لي ذلك. يبدو أنهم يتلقون تدريباً معيناً في المعسكرات لينظروا إلى الناس بطريقة محددة. نظرة باردة، قاسية، خالية من التسامح و لها في النفس وقع صافرة إنذار. توجد مدرعة أو دبابة يجلس إلى جوارها مجموعة من العساكر على بعد خطوات من الشرطي الحارس. كانوا ينظرون إلى الناس باحتقار.

عندما أنزل من الجسر تكون المرحلة الأولى من رحلتي اليومية قد انتهت لتبدأ التي بعدها. المرحلة التي بعدها يطبعها التجنب. ألزم نفسي بتجنب مجموعة من الأشياء. أبدأ بتجنب المرور قريباً من بنايات دخلتها ذات يوم للتقديم لوظيفة. كثيرة هي طلبات التقديم التي عبأتها، و كثيرة تلك الفايلات الشفافة التي صففت فيها الشهادات و الأوراق الثبوتية بعناية فائقة، لتتكوم مع فايلات أخرى قبالة موظف أو موظفة استقبال يطل من عيونهما الغضب. المرور بالقرب من تلك البنايات يصيبني بالقشعريرة. أكبر و أهم موقع أسعى

إلى تجنبه بكل ما أوتيت من قوة كان هو الجامعة التي تخرجت فيها. عندما تنتهي مرحلة التجنب أوسع من خطواتي لأقطع المسافات بهمة و نشاط كأنني على موعد حاسم أخشى فواته.

السنتر دائماً يعج بجميع أنواع السيارات و البشر و البضائع. دائماً أصل إلى هناك عند انتصاف النهار فيكون الزحام قد بلغ أوجه و الحرارة في أعلى درجاتها. رغم المشاعر المتضاربة بداخلي لكنني أشعر بكثير من الامتنان تجاه هذا السنتر فهو المكان الوحيد الذي أشعر فيه بأنني مدفون و أنا حي دون أن تتملكني القشعريرة.

تحسست جيبي و أطمأننت إلى أن الجنيه الورقي يرقد بجانب القطعة المعدنية فئة خمسين قرش قبل أن أدلف إلى الساحة الأشد ازدحاماً حيث يلتحم البشر بالسيارات بالبضائع في فورة هائجة ترج العقل رجاً. أرجأت التفكير في ما سأفعله بالجنيه و نصف إلى حين بلوغي الجدار العظيم الذي تحتمي بظله بائعات الشاي و ماسحو الأحذية و سائقو الحافلات و مساعديهم في انتظار النمرة. سحبت بنبراً و جلست. كردة فعل سريعة على نظرة البائعة المستهجنة طلبت كوب شاي بالنعاع. شكل السائقون و المساعدية صفاً غير منتظم تحت الجدار في مواجهة الشارع الذي لا تهدأ فيه الحركة بتاتاً و كانوا يعلقون على ملابس بنات الجامعة الرائحات و الغاديات و بعضهم كان يغمز لهن. بعد دفع ثمن كوب الشاي يتبقى معي جنيه و لدي جنيه آخر خبأته جيداً وسط أحد الكتب في البيت و عليه يمكنني أن أفطر بساندويتش طعمية بخمسين قرش ليتبقي عندى خمسين قرش أضمها إلى الجنيه الذي خبأته

حتى اتمكن من تدبر أمري غداً. مرت فتاتان بدينتان فتبادل مجموعة من السواقين و الكماسرة النظرات و بدت لي نظراتهم شبيهة بنظرة الشرطي. انتظروا حتى ابتعدت الفتاتان فقهقه أحدهم و قال آخر شيئاً عن الدهن. ربما الكماسرة و السواقين يتدربون على أشياء معينة ضرورية لمهنتهم. في الجامعة أذكر أنهم كانوا يكررون لنا أن التدريب عامل مهم من عوامل النجاح. تابعت ست الشاي و هي منهمكة في تعديل وضع الجمرات تحت الموقد بدقة. تابعت كما لو أنهم سيطرحون علي سؤالاً في أحد المعاينات عن أدق تفاصيل عمل ستات الشاي. كانت تربط التوب عند خصرها و عندما لاحظت أن نظري معلق بها تظاهرت بالتشاغل بالموبايل مع اختلاس نظرات سريعة نحوي فيها استفسار، و دعوة، و وعيد فحولت نظري إلى الطريق من جديد. أهم شيء يجب التأكيد عليه هو أن أظل بعيداً عن البيت أطول مدة ممكنة. بعد الفراغ من الشاي سأبقى لبعض الوقت و لكن لم أحدد وجهتي التالية بعد.

عندما أفكر في الأمر ملياً ينتهي الوضع بأن أضحك على نفسي. لا بد أن ست الشاي لاحظت بوادر الابتسام على وجهي لذلك هي ترمقني بأستياء و احتقار مبالغ فيهما. لا بد أنها تقول لنفسها: المجنون، و من يظن نفسه حتى تؤثر فيي ابتسامته البلهاء. لمحتها و هي تتضاير جيداً و كأنها تخشى من هجومي الوشيك. كل واحد له همه و كل واحد له اتجاهه. يا سيدتي، يا سيدتنا يا سيدة الشاي العزيزة إن الاتجاه الذي يتخذه مشروع ضحكتي هو غير هذا الذي على بالك. صدقيني، أنا أضحك على نفسي. ما يُضحكني يا سيدتي هو أنني استخدم اللغة العربية الفصحى في التفكير، و في مخاطبتي لنفسي و قد أضحكتني كثيراً جملة "لم أحدد وجهتي التالية

بعد"، مثلما تُضحكني مجموعة الكلمات التي أخاطب بها نفسي متقلباً على الفراش قبل النوم كل ليلة. اتحدث عن الوجهة و التحديد كأن القبة تحتها فكي.

عندما فرغت من الشاي أخذ الشعور الدفين بأنني في ورطة في الاستحكام و تزايد هذا الشعور و دخل معه على الخط شعور كاسح بالضياع و الفقد ليتجلى ذلك كله في تعثري بالبنبر الذي كنت جالساً عليه و أنا أنهض لمغادرة المكان. مغادرة المكان الظليل نسبياً مشكلة في حد ذاتها فقد كنت أود الجلوس على ذلك البنبر أطول فترة بدون التفكير في أي شيء بينما عيني لا تستقر على شيء محدد و أذني تلتقط ثرثرة الكماسرة و السواقين بكثير من التدقيق فقد حفظت أحاديثهم و بت أعرف بعض الأصوات و لدي تحفظات على الطريقة التي يطلبون بها الشاي و التي يجتذبون بها البنابر قبل الإقعاء عليها، و الأساليب التي يتحايلون بها للتهرب من دفع ثمن الأكواب التي يشربونها أما بجرجرة و استدراج أحدهم ليدفع عن الباقين، أو بالدخول في مناقشات طويلة و لزجة مع البائعة المسكينة، يتكرر فيها الوعد بأنهم سيدفعون غداً ثمن ما شربوه أمس و اليوم، مع تلميحات تقلل من شأن الشاي و ستات الشاي و أهم تحفظ لدي كان تجاه الطريقة التي يرمقونني بها، و التضخيم الظاهر في نبرات الأصوات عند الحديث عن مغامراتهم مع شرطة المرور أو أي من تلك المغامرات التي لا تخلو منها حياة الكماسرة و السواقين، و واحد منهم كنت أرمقه بطرف خفي يتصرف كأنه عمدة أو زعيم أو شيء من هذا القبيل، ما كنت أطيق صوته و لا تحرشاته المكشوفة بالبنت المسكينة و أكثر ما يغيظيني أن البنت المسكينة تبدو كما لو كانت متواطئة معه، لا بل

هي متواطئة معهم جميعاً الحمقاء، لذلك تعثرت، و خُيل إلى أن البسمات الصفراء تجلد مؤخرتي و أنا أغوص في الزحام الذي كانت الشمس تبذل قصارى جهدها لصهره و تذويبه.

فرمل سائق الهايس ساخطاً ليسمح بعبور سرب من الراجلين فعبرت معهم. سخط بعضهم من سخط السائق فتبادلوا معه شتائم سريعة قبل أن يكتمل عبورنا إلى رصيف يتزاحم فيه الباعة مع العربات، و كان بعض أعضاء السرب العابر الذي انتميت إليه في لحظات العبور تلك يبدو و كأنه غير معني بسخط السائق و لا بسخط بعض الأعضاء، أما بنات الجامعة االلائي عبرن معنا فقد كانت السماعات على أذانهن و كانت هناك بنتان تتضاحكان كأننا في نزهة في الريف الأمريكي. الأمر لا يعنيني كثيراً لكن عاطل مثلي يمتهن التسكع كفاحاً لا بد أن يسجل الظواهر السالبة و يحللها و ينتقدها. هذا جيل لا مبالي، هذا جيل أصم. هكذا حدثت نفسي و أنا أفارق السرب مشتتاً بين المضي إلى أقرب بائع طعمية، أو التفكير في وسيلة أخرى تمكنني من الحصول على ظل معقول في هذا النهار القائظ لقضاء الوقت متسكعاً هكذا و عدم مغادرة مثل هذه الأمكنة إلى أجل غير معلوم، و لإبقاء كل الأمور المعلقة، معلقة كما هي. يا لها من حياة قائظة، تدعو للغيظ. ماي كلير باك لا فائدة منها و أنا نفسي عبارة عن باك حمقاء منتفخة بالهواء الساخن يسفعها السموم بلا شفقة. إنني بلا جيل و يحق لي أن انتقد و أهاجم بلا هوادة، فكل الأجيال تافهة، لأن هذه البلاد يحصل فيها مستوردوا الحقائب الصينية الشفافة على مليارات الجنيهات و الدولارات و اليورهات بينما يحصل مستهلكي الكلير باكات على السموم.

بعد تكرار مشهد العبور السابق عدة مرات في مواقع مختلفة من هذا السنتر فشلت في الحصول على ظل يقيني حر الهجير. برندات البنايات المنتشرة في السنتر مكتظة ومحتلة بالكامل بالباعة و ستات الشاي واصحاب المحلات الذين يضعون مقاعدهم أمام محلاتهم بغرض الحراسة أو أصطياد زبائن، و بخاصة بغرض الايقاع بالبنات العابرات في فخاخ مكشوفة. هذه المدينة عامرة بالفخاخ المكشوفة و الفجة. إنها مدينة لا تسمح لك بنصب فخ مختلف قليلا ينصبه الواحد لنفسه ثم يقع فيه طائعاً ليتدبر العبارة الخالدة: أكون أو لا أكون على مهل و بطريقة تجعل من أمر تدبر مثل هذه العبارات أمر له معنى و قيمة بعيداً عن طريقة العيش السائدة و المفروضة بالقوة على الناس. و هل هذه الطريقة مفروضة علينا بالقوة كما أظن أم أننا نفرضها على أنفسنا؟ قلت لنفسي: دعك من التفلسف الفارغ و هيا بنا إلى الطعمية.

نصف قطعة الخبز التي تحتوي على ثلاث حبات طعمية كانت ناشفة و الطعمية نفسها انشف منها و خالية من أي طعم و البائع بدا عليه الاستياء و هو يناولني الساندويتش الصغير، كأنه يقول أذهب و التهم ساندويتشك اللعين بعيداً عني، و هذا ما يؤكد نظريتي القائلة بأن السنتر مكان للعداء، الجميع يتبادلون العداء الصامت أغلب الوقت، النظرات تنطق بالعداء و الكلام أغلبه شتائم أو جمل قصيرة يتم شحنها بأكبر قدر ممكن من الاستفزاز، و حتى طريقة المشي توحي بأن هذه الاجساد المتلاطمة تريد الانقضاض على شيء ما، أو هي تخشى أن ينقض عليها شيء ما، و رغم أن هناك أكثر من دورية شرطة فإنه لا يمر يوم بدون نشوب معركة دامية هنا أو هناك، و قليل منها ينتهي بالقتل، أو إحداث فوضي يمتد تأثيرها لبعض الوقت، قبل أن تدور

تروس الماكينة الغريبة التي يسمونها وسط المدينة من جديد، و اعتقد جازماً أن حالة العداء السافرة التي يعج بها المكان هي التي تقوم بتشحيم التروس و تزييتها لتواصل ماكينة السنتر عملها بشكل أفضل.

ليس بمقدوري الحصول على جرعة ماء ناهيك عن عصير أو قارورة مياه غازية بعد ابتلاع الساندويتش الناشف، و ليس من خيار أمامي غير الاحتفاظ بالقطعة المعدنية حتى نهاية الدوام حتى لا أعود راجلاً. من الجيد أنني احتفظ بجنيه (ألف) ورقي في البيت وسط ذلك الكتاب الذي لم اتمكن من انهاءه حتى الآن. لو كان الجنيه معي الآن لكنت تهورت، و لشربت كوزين موية بقرشين (مأتين)، و لربما اتجهت إلى إحدى ستات الشاي مجدداً بدون تحسب للعواقب. وجود ذلك الجنيه الذي هو أيضاً ألف يعني أن الرحلة ستتكرر غداً ، لكنني أخطط لما هو أبعد من ذلك إذ انتوي العودة إلى السنتر راجلاً غداً و أيضاً الإياب سيراً على الأقدام حتى يظل الجنيه (ألألف) في مأمن ليوم إضافي آخر. الجنيه الذي يسمى ألف أيضاً أطلقوا عليه و لفترة من الزمن ديناراً ثم من جديد عاد جنيهاً كما كان في السابق لكن لا أظن أن احد غيري يهتم لمسألة القرش و القرشين هذه. عموماً فإن مسألة القروش و المال و النقود مسألة غاية في التعقيد و الغرابة . الغرابة عندما تطرأ على شيء غريب أصلاً، على الأقل بالنسبة لي، تجعل الامر برمته متاهة يصعب تجنبها. هذه المتاهة موجودة في كل شبر من هذه المدينة المكتظة بالبشر و النفايات و المركبات و يفترض أن الرحلة الأساسية التي بموجبها يتجول الناس في جنباتها هي رحلة للحصول علي المال بصورة منتظمة لكنني لا أحصل عليه إلا لماماً و لفترات قصيرة جداً، و في غالب الاحوال لا أحصل

عليه بتاتاً مضافاً إلى ذلك قضية الاسماء التي لا تهدأ فالأمر كله مريب و غريب و عجيب جداً و لا يدع لي مجالاً للراحة أو الهدوء أو الهروب.

أضحك ضحكة صغيرة و أنا وسط الزحام، أضحك بسبب البرمجة التي لا فكاك منها و التي ألزمت نفسي بها أو التي ألزمتني الأيام و الظروف بها. أريد ظلاً أخر حتى أسمح للخمول الذي سرى في جسدي أن يبلغ مداه. بنبر تحت شجرة وارفة أو موطيء قدم تحت أحد المظلات المنتشرة في محطة الباصات القريبة و رغم أنني أعرف بناية قريبة معزولة عن الزحام نوعاً ما لكنني أتردد أكثر من مرة قبل التوجه إليها أو إلى أي من الأماكن التي يتوفر فيها شيء من الهدوء النسبي و السبب الذي يقف وراء ترددي هو تلك الخبرة التي اكتسبتها بالسنتر و مواقعه و حركته، و هي خبرة قوامها الخوف الكثير و التردد الذي يقودك إلى تردد و هي خبرة تجعلني ارتبط بالسنتر ارتباطاً متوتراً و لكنها لا تسعف كثيراً في خلق علاقة وطيدة بالمكان و أشياؤه بسبب دوريات الشرطة المنتشرة هنا و هناك و حراس البنايات الذين لا يطيقون تردد المتسكعين على الظلال التي يقومون على حراستها و يضيقون بكل من تظهر عليه بوادر التسكع المجاني و قد ينتهي الأمر نهاية غير سعيدة في زنزانة قذرة أو كبسولة من كبسولات الشرطة الشعبية يصفعونك فيها صفعتين أو ثلاث قبل توديعك بركلة محترمة على مؤخرتك. لو كانت لدي وظيفة ما ربما كان الشعور بالخمول مختلفاً. من حسن الحظ أنني لم أشرب ماءاً لأن ذلك كان سيدفع بي بعد قليل للمراحيض العمومية فئة 30 قرش. الأحسن اتسكع هكذا نصف دائخ حتى العصر. يبدو أن عمري كله سينقضي و أنا نصف دائخ هكذا لكن لا بد أن ثمة قشة ساتعلق بها و ستنتشلني من الغرق.

ربما تنتشلني من موج السنتر لتلقي بي في لجة أخرى لا قبل لي بها. حلوة هذه المفردات الفصيحة التي أخاطب بها نفسي و تكرارها يمنحني شيء من السلوى و العزاء. رمقني سائق أحدي الهايسات بنظرة نارية و خطواتي الحائرة تعيق سباحته المتعثرة في هذا البحر من الحر و الضيق و الاختناق، و كانت نظرة السائق الحارقة أظهر علامة تؤكد أن المد في هذا البحر قد بلغ ذروته. أسرعت قليلاً لأعبر صوب الضفة الأخرى من الشارع. من على متن هليكوبتر تحلق على ارتفاع منخفض سيبدو السنتر لمن يتأمله أمواجاً تتكسر في بعضها و لا تتقدم إلى أي مكان. دوامات من الحديد الذي يقوده سائقوه بصبر نافذ، و بشر دائخون تحسبهم بخاراً يتصاعد من الأرض متلوياً لبعض الوقت قبل تلاشيه لتنفث الأرض العزيزة غيره، و قد سئمت- أي الأرض- من كثرة المشغوليات و المسؤوليات مثل الأم التي تسأم من تربية كل هذا العدد المهول من العيال.

المرحلة التي أصل فيها إلى طريق مسدود هي الأقسي في جولتي اليومية هذه. دائماً تنسد الآفاق في السنتر بين الواحدة ظهراً و حتى الرابعة عصراً. يبدو الناس من حولي معصورين أكثر مما ينبغي. وجوههم السوداء و السمراء و القمحية من حولي و قد انسدت أمامها الآفاق أقنعة لا تتناسب إلا مع خشبة مسرح القسوة و العبث و الضياع. في مثل هذا الوقت يفقد الباعة حيويتهم، و تتخذ العربات الداخلة و الخارجة من السنتر هيئة مدرعات حربية وقعت في كمين لا فكاك منه، و تتصاعد من حفرة سوداء في أعماق الروح استغاثات متقطعة مطالبة بتعجيل النهاية المؤجلة عبثاً.

و لكي أضع حداً لكل هذا لا بد أن أحصل على مهنة ما. شيء اتشاغل به عن هذه الحفر التي جعلت من روحي غربالاً يستقبل كل شيء و لا يحتفظ بشيء. أي شغلانة و السلام ألبسها قناعاً أضلل به نفسي كلما نقبت عن نفسي فلا أجدها و لا يبقي مني شيء سوى القناع حتى لو جبت أشد الحفر حلكة في الروح.

لن أعود إلى ماي كلير باك أبداً و على أن اتخذ قراراً حاسم الآن أحدد بموجبه كيف سيكون مستقبلي و على ايضاً تحديد علاقتي مع هذا السنتر بصورة نهائية و حاسمة و واضحة و إلا . . .

اجتاحني تيار الأفكار الغبراء و أحلام اليقظة المتحشرجة المعتادة و أنا أشق طريقي متفادياً البضائع المرمية تحت الأقدام و المحروسة بأصوات الباعة الذين لا يكفون عن الصراخ و فكرت أن الالتحاق بهذا الجيش العرمرم من المفترشين بحاجة إلى رأسمال، و لو حاولت تنصيب طبلية في هذا السنتر فأنني أصبح ملزماً بالتردد على مكاتب كالحة للحصول على تصاديق وأختام و أوراق و هلمجرا، ثم أن الجباة لا يرحمون، هذا غير الدردحة التي لا غنى عنها لمن يريد الحصول على فرصته في هذا السنتر، و بما أنني اعتقد جازماً أنني في وادي و الدردحة في وادي، لذا إزدادت قناعتي بأنني في أمس الحاجة إلى شعوذات خارقة و تدجيلات متقنة لمواصلة هذه التي يسمونها الحياة، و عندما بلغت تقاطعاً تتشعب عنده الطرق، حلمت بأنني درويش مودرن ألف و أدور ضائعاً في ملكوت الزحام، و جزمت كعادتي بيني و بين نفسي أن الكينونة خاصتي قد غلبت عليها العناصر الزيتية فلا مناص

لها غير أن يطلع زيتها ليغذي السياق الزيتي الذي تقيم فيه و تنزلت على سكينة الدراويش لأن العشرات من حولي بل المئات يلفون و يدورون في جذبة أرضية لا فكاك منها.

بعد اللف و الدوران بدون هدى و قبيل المغيب بساعة أو نحوها أعود أدراجي. تتكرر الرحلة معكوسة و لكنني هذه المرة لا أسرع ولا اتجنب كما هو الحال في رحلة الذهاب، فكلما تأخرت العودة أو حتى تأجلت أكون قد حققت الهدف الأول من تسكعي الهذياني و هو البقاء بعيداً عن البيت أطول مدة ممكنة. من منافع التأخير التي لا غنى عنها دخولي البيت في وقت يكون فيه التعب قد أخذ من الجماعة هناك كل مأخذ. يكف أبي عن الهذيان و تكون أمي قد كفت عن توبيخه و استسلمت لغفوة قلقة لم أفلح حتى هذه اللحظة في اكتشاف الطريقة التي تنهيها بها بغتة ما أن أدفع الباب محاذراً من إحداث و لو أقل قدر من الضجيج. تستوى جالسة على العنقريب و توبخني بكلمة أو كلمتين و تبقى على ذلك الوضع فترة من الوقت موزعة جهدها الناعس بين التوبيخ و التضرع إلى الله أن يهديني و يجمعني ببنت الحلال قبل أن تغيب في غفوة جديدة لن تطول.

صدف أن لمحت وجهي منعكساً على واجهة صقيلة لبناية شاهقة مما يصادفني اثناء تسكعي المتخبط في السنتر. رأيت وجهي قناعاً أُريد لملامحه أن تعبر عن ما لا يمكن التعبير عنه في حفل تنكري سينتهي باكتشاف المحتفلين لحقيقة الأمر و هي أنهم موتى لن يتمكنوا من تصفية حساباتهم لا

مع الوجود و لا مع العدم. كانت نظرتي نظرة شخص مُدان يعلم على نحو ما أن عقاباً فظيعاً ينتظره بمكان ما لذا فإن نظرته بدورها كانت تدين كل شيء. كانت نظرتي تدين صاحب الوجه الجزع و هو يتأمل صورته الهاربة و المتسربة و المتحولة إلى بخار رهيف يتلوى معذباً في صمت.

ميثاق السعادة العبيط

بدأت المياه تغمرني و أخذت أغطس و أقلع و عندما ينقطع تنفسي و يضرب الماء أذني و عيني اللتين حرصت على إبقائهما مفتوحتين مهما كلفني ذلك كنت اتذكر لحظات بعيدة من طفولتي. في تلك الأوقات لم أكن ملزماً بشيء. على ما أذكر كنت أقضي أغلب الوقت في تتبع حركة الظلال. كانت هناك شجرة «نيم» عتيقة في فناء الدار و كانت لي مع ظلها حكايات و حكايات.

تركت نفسي للماء، و لم أعد أفكر في شيء، و خيل إلى أنني أسمع أصوات و نداءات و أن هناك سواعد قوية تطبق على كتفي قبل أن استيقظ محاطاً بمجموعة من الوجوه التي تتكلف الابتسام. تم انقاذي من الغرق على ما يبدو، و فشل مخططي.

الآن انا متعب و أرغب في الاختفاء بعيداً عن الانظار و لا أجد سبيلاً لذلك. السبب هو الجماعات. الجماعات في كل مكان. حتى عندما حاولت الانتحار كما حدثتكم تدخلت الجماعات و أفسدت الأمر. كنت خططت للانتحار بصورة جيدة و أخفيت سري عن الجميع و عندما حانت ساعة الصفر و عندما لم يعد هناك ما يفصلني عن الرحيل سوى خطوة واحدة صغيرة و

ربما أقل من خطوة برز لي شباب (جماعة ضد الموت) فأنقذوني و انتشلوني ثم استبقوني بينهم لبعض الوقت و سلطوا على برنامجاً يسمونه برنامج الدعم النفسي و الاجتماعي أو السايكوسوشيال سبورت و لكن قبل انقضاء فترة علاجي انقض نفر من شباب (جماعة لنموت معاً) على مقر جماعة (ضد الموت) و قد فرّ شبان الجماعة تلك لأن فتيان (لنموت معاً) يشكلون مجموعة انتحارية ذائعة الصيت، مرهوبة الجانب تهتم بتنظيم حفلات انتحار جماعية و تزدهر عضويتها بسبب عمليات الاختطاف و حملات الاقتحام التي تواظب الجماعة على شنها و قلما يكون الانتساب إليها اختيارياً ولا بد أن خبري بلغهم فما تأخروا عن اقتحام ذلك المبنى المتداعي الذي كنت اتلقى فيه الدعم النفسي الاجتماعي و شهدت بأم عيني كيف فرّ أفراد جماعة ضد الموت من الموت.

اقتادني الخاطفون إلى مقر واسع مترامي الأطراف و أُخطرت بأنني ساتلقى تدريباً مكثفاً منذ الغد للمشاركة في حفلة موت ضخمة تزمع الجماعة تنظيمها قريباً. نقلوني من الحوش الواسع و وضعوني في جحر أو زنزانة خالية من كل شيء سوى الجدران تقريباً و ذلك بطبيعة الحال لكي يضمنوا أنني لن أفعلها فردياً و جلبوا لي عشاء مكون من حساء بطعم الحرجل و كسرة خبز سمراء و تركوني و شأني مع حارس في الجوار يراني و لا أراه. كما أسلفت كنت متعباً فغفوت و عندما استيقظت كان الظلام لا يزال مخيماً و لما لم يكن لدي ما أفعله فقد ظللت راقداً و طافت بذهني الويلات الكثيرة المتتالية التي عانيتها بسبب الجماعات بدءاً من جمعيات الحفظ و التلقين بالمرحلة الابتدائية مروراً بجماعة أصدقاء الشجرة و ليس انتهاء بجماعة لنموت معاً

التي وقعت في حبائلها اليوم.

شيء فظيع و شديد التعقيد. لا يمكنك أن تجلس في حديقة عامة أو على شط النيل ما لم تكن عضواً في جماعة. ينظرون صوبك بارتياب، ينظرون شذرا، و بسرعة فائقة يتم تصنيفك بوصفك جسم غريب و تصلك من كل جماعة رسالة مفادها أنك شخص غير مرغوب فيه. لا يتأخرون أبداً في الإرسال. يرسلونها بالنظرات. يحمرون لك. ينظرون صوبك باشمئزاز و ربما أرسلوا رسائل صوتية موجزة تسخر منك و تطالبك بالرحيل فوراً. الأفظع أن جميع الجماعات تعتبرك عضواً في جماعة معادية تريد بهم شراً. جاسوس حقير يختبيء خلف حجة قضاء الوقت و الترفيه ليتلصص و يجمع المعلومات. حتى جماعة الشرقرق لديهم أسباب وجيهة للتوجس من تواجد شخص بالقرب منهم لا يفعل شيئاً غير الجلوس و التحديق في الفراغ. جماعة الخرشات يتمتعون بحس أمني عالي و تصادف أنني تواجدت في جمبة على شط النيل ذات مرة فأبدي كل رواد تلك الجمبة ضيقاً عظيماً من جلستي التي طالت فانتدبوا ست الشاي لتبليغي و بطريقة غير دبلوماسية أنه لا يوجد سبب وجيه لجلوسي وحيداً هكذا و غادرت تشيعني اللعنات. أما لماذا لا تروقني الجماعات فالأسباب عديدة. لا يتبادر إلي أذهانكم أنني أتيت إلى هذه الحياة و انا كاره للتجمعات بل على العكس لقد أمضيت ما يسمونه أجمل مرحلة من العمر في اللهاث خلف الجماعات و التنقل من هذه الجماعة إلى تلك بحثاً عن الفرقة الناجية فماذا كانت النتيجة؟ جماعة الظل الظليل اسلموني للهاجرة فنحن كنا نقضي سحابة النهار في البحث عن الظلال و كانت الشمس تصب لهيبها على رؤوسنا و كنا ما أن نجد

ظلاً حتى تنطلق مباراة ذميمة بين الأعضاء لاحتلال المواقع المثالية و بما أن الظلال شحيحة فقد كانت الضغائن تنمو فور وصولنا إلى ظل ما، يسود جو من الشحناء و التنافس الكريه لا يزدهر إلا في وسط جماعة لديها دستور دائم و نظام أساسي و كل فرد تكاد تشم لهيب حرائقه الباطنية الكفيلة بالقضاء على الأخضر و اليابس و بالتالي ليس فقط على الظلال التي نلهث نهارنا كله بحثاً عنها بل تقضي تلكم الحرائق حتى على الظلال المحتملة. أما جماعة النور المبين فإنهم سعوا إلى احتكار كل أضواء العالم و تخزينها ثم بيعها في عبوات صغيرة و كانت اجتماعاتنا الدورية تشهد نقاشات مستفيضة تنتهي بتوصيات تحث كل عضو على الوصول إلى طريقة مبتكرة لخطف الأضواء و بعيداً عن تلك الاجتماعات، كل عضو بالمجموعة كان يخطط سراً ليصبح امبراطور الضياء و ذلك في إطار المخطط السري للجماعة ألا و هو استدراج كوكب الأرض إلى مرحلة من الظلام الدامس يتخبط فيها الناس و يتوهون في بحر من الظلمات لا أول له و لا آخر لتأتي جماعتنا و تعلن عن مزادات علنية لبيع النور.

المهم بعد هذه الرحلة غير الموفقة مع الجماعات التي التحقت ببعضها بمحض إرادتي و ببعضها صاغراً في مراحل مختلفة من حياتي توصلت إلى ضرورة عمل كل ما يلزم و ما لا يلزم و بذل الغالي و النفيس للنجاة من الجماعات. تعلمون كم أن ذلك مستحيل على اعتبار أن محاولة اللانتماء ذاتها لها جماعاتها، و لكن ليس لدي خيار آخر. لا أرغب، لا أريد، لن استسلم.

لم يكن من الحكمة التصريح بأنني أبغض الجماعات و اتجنب الانضمام إليها فاستخدمت الحيلة و سعيت أن أظهر بمظهر من لديه جماعة و لكن في عالم كهذا الذي أعيش فيه فإنه من المستحيل أيضاً أن لا ينكشف الأمر، فرغم محاولاتي المستميتة في البقاء الاضطراري بين ظهرانيهم مع الاحتفاظ بالمسافة اللازمة التي تبقيني بعيداً فإنهم كانوا يكتشفون و بسهولة ليس فقط أنني غير منتم إلى أي جماعة بل كانوا أيضاً يخلصون و بدون أي جهد يذكر إلى أنني لا أرغب، أنني لا أريد، و سرعان ما يتم القبض علي متلبساً بالجرم المشهود فأصبح هدفاً يتنافسون عليه. ربما هناك رائحة تنبعث مني هي ما يدلهم علي. ربما نظرتي التائهة الحانقة هي ما يفضحني. و في غابة الشوك الشاسعة هذي كلما حاولت الروغان كلما نهشتني الأشواك. استولت الجماعات على كل شيء. الألوان و المذاقات و التعابير و الطريقة التي يمشي بها الناس و التي يلوحون بها لبعضهم بعضا و الأزياء كلها تم اقتسامها بين الجماعات. كل ملمح، كل كلمة، كل راية و كل خاتم أو حلية أو تقليعة أو حجر انما هو رمز لجماعة ما و كل جماعة كانت تستميت في الدفاع عن الملكية الحصرية لرمزها. خذ عندك على سبيل المثال جماعة حداد الروح. هذه الفئة من الناس كادوا أن يستولوا على اللون الأسود فكأنه خلق من أجلهم بل كأنهم هم من خلق هذا اللون. طبعاً هناك جماعات أخرى تتصارع معها وهذا الصراع المستمر على السواد جعل من الليل موضوعاً لمزايدات فقد بسببها جلّ هيبته و جلاله و جماله و سلطانه فأصبح مترنحاً ينوء بثقل ما يرمون به على كاهله من أعباء. كل الموجودات وضعها صراع الجماعات عليها على تلك الحافة التي يستوى عندها الوجود و العدم. كل شيء حاضر بقوة،

و كل شيء يكاد يحتل المقدمة لأن هناك من يسهر على تأجيجه و تلميعه لكنما كل شيء أيضاً يبدو مزيفاً و مصطنعاً خاوياً بلا ثقل حقيقي لأن كل شيء ضاع جوهره و بات مظهره لا يدل على مخبره بسبب حروب الاستيلاء الهستيرية التي لا تكف الجماعات عن شنها صباح مساء.

كثيرة هي الأسباب التي تجعلني أبغض جميع الجماعات. لقد أفقدوا العالم عذريته. يريدونك أن تعيش في عالم هم من افترعه. «لقد قمنا بالمهمة نيابة عنك و تستطيع الآن أن تبدأ شهر العسل الذي سيبين لك هذا الدليل الإرشادي كيف تقضيه». هذا لسان حالهم. ذات مرة و بعد تجربة حب فاشلة استسلمت للكآبة و لم تمهلني الجماعات التي جندت نفسها لتسيير شؤون المحبة و تقديم النصح اللازم للتدواي من جروح الغرام حتى اتعود على مذاق الفقد بل أحاطوا بي من كل حدب و صوب و شرعوا في القيام بالمهمة التي انتدبوا أنفسهم للقيام بها و هي تدريبي على السلوى و النسيان وصولاً إلى مرحلة الهزء بالهجر الذي تعرضت له. و كالعادة لم يقتصر الأمر على جماعة واحدة فكما إن بعضهم يدعي أن أنسب طريقة للتعامل مع حالتي هي الحصول السريع على النسيان و السلوى و الانطلاق من جديد كأن شيئاً لم يحدث فإن هناك من يرى أن جراح الحب لا برء منها و هؤلاء تمثلت مهمتهم كما بدا لي في تعليمي مهارة السباحة في بحر اللوعات الذي لا شطئان له بدون أن أسمح لنفسي و لو بلحظة نسيان واحدة.

حتى صوت الرعد و حتى البرق تم الاستيلاء عليهما. تتكاثف السحب و تتلاصف البروق، فلا يجد ابن آدم مناصاً من التسليم بأن الجبهات الثورية

التي تتخذ من البرق و الرعد رموزاً هي المعنية بالأمر لا أنت. يظهر قوس قزح في السماء فتطاطيء رأسك لأنه لم يعد لديك نصيب في هذه الألوان السبعة. هناك عبارات تمسك لسانك عن ترديدها و حتى بينك و بين نفسك عندما توشك أن تهتف "الله أكبر" أو "اللعنة اللعناء" تمسك عن ذلك لأن هذه الهتافات تم اختطافها من زمان. لم أكن أرغب في الانتحار لكن لم يتركوا لي طريقاً آخر لأسلكه.

و كلو كوم و الجماعة الكبيرة أو جماعة الجماعات كوم. تسيطر الجماعة الكبيرة على الثروة و تدعي القدرة الكلية على القيام بكل شيء و الإشراف على كل الجماعات كما أنها تصنع جماعات جديدة و تمحو جماعات قائمة و تنسج الفتن و تدق الأسافين و تجيد تسخير جميع الجماعات لتحقيق هدفها الأول و الأخير و هو البقاء في الأعلى إلى الأبد و تكديس الذهب في خزائن أفرادها وبرأي فإن كل الجماعات تدور حولها و أظن أن أفراد جميع الجماعات يحلمون بالتسلل إلى أعلى.

و بينما انا غارق في السخط و وجهي إلى الجدار القاسي ، اندب حظي ، فتح أحدهم الباب و دخل ثلاثة شبان يشبهون بعضهم و كأنهم توائم، و حرت هل ابقى مستلقياً أم انهض. ظلوا وقوفاً و لم يشغلوا أنفسهم بالنظر إلى بل كانت نظرات ثلاثتهم تتفقد الجدران الصخرية كأنهم يبحثون عن رسم أو علامة ما.

يبدو أيضاً أنه لا يهمهم إذا كان المرء منبطحاً أم قائماً، عار أو مكتسي، صاح أو نائم، و من الواضح أنهم لا يحبون المقدمات و من واقع خبرتي

المضعضعة في التعامل مع الجماعات و أدبياتها فإنه من الصعب عليك أن تعرف هل من الأفضل لك أن تصمت أم أن الكلام أحسن خصوصاً عندما يتعلق الأمر بمجموعة أسئلة دائماً يطرحونها عليك و ينتظرون منك أن ترد عليها بما يتوافق مع توقعاتهم التي لا تعرف عنها شيئاً.

كانوا يرتدون ثياباً تنتمي إلى أزمنة غابرة و لحاهم مرسلة و يتمنطقون بخناجر و من الكتف الأيمن يتدلي سيف و من الأيسر رشاش سريع الطلقات و يضعون خوذات معدنية على رؤوسهم و صفق أحدهم فدخل حارسان و أحضرا مقاعد منخفضة استووا عليها جلوساً و لحظت أن أحدهم يحمل دفتراً من الورق السميك و ناوله أحدهم فرشاة الكتابة و الدواة. طبعاً كل الجماعات إما أنها تحاول استحضار أزمنة موغلة في القدم لتفرضها على الآن أو أنها تقفز إلى أزمنة غائرة في المستقبل و الجميع يمسكون بتلابيبك و يجرجرونك إلى تلك الأزمنة السعيدة و هذا واحد من أسباب نفوري المستمر و الذي لا شفاء منه من هذه القضية التي تجعلني أبغض اليوم الذي جئت فيه إلى هذه الدنيا.

سألني كاتب الديوان عن اسمي فذكرته و دونه على دفتره الكبير. ثم صمتوا و فقط أخذ كاتب الديوان يحرك فرشاته على الصفحة المفتوحة أمامه لبعض الوقت و عندما توقفت حركة يده رفع وجهه إلى و ابتسم: رسمناك.

قال الذي يبدو أنه قائدهم: طبعاً لن تموت. صمت و يبدو أنه لم يكن مهتماً بالأثر الذي ستخلفه عبارته على بقدر اهتمامه بتوصيل رسالة الجماعة ثم أضاف: ما سيحدث فقط هو أن النار سترمم ما فسد من صلصالك لتعود

أحسن مما كنت. انتزع كاتب الديوان الورقة التي رسمني عليها و ناولني إياها مع تلك الابتسامة التي لم تفارقه منذ فراغه من رسمي. ثم جاء الأخير و الذي لم ينطق بحرف فثبت نظره على وجهي لبرهة قبل أن يمسكني من ذقني ناظراً إلى عيني مباشرة قبل أن يربت على كتفي برفق و يلتفت مبتسماً لصاحبيه.

غادروا و ظللت في الزنزانة مع الورقة. كانت بيضاء تميل إلى الإصفرار. خالية من الأحرف و الرسم رغم أن خشخشة الفرشاة ما زال صداها يتردد في فضاء الزنزانة الصخرية. ورقة منزوعة من أرشيف محكمة عليا مجهولة تتضمن حكماً قضائياً فظيعاً يصعب تبينه كما و يصعب تجنبه. لم اتمكن من رفع نظري عنها و ظلت خالية بيضاء و مائلة للإصفرار الشاحب. و بمرور الزمن أخذت اتبين رسوماً و كلمات غير مكتملة. الشيطان بذيله المثلث كان متكئاً على عصاته المعقوفة في ركن منها. ثم أخذ الشيطان يتخذ أشكالاً مختلفة فهو مرة ملاك مجنح و تارة هو أفعى أو رخ و عندما أخذ يظهر بوجه إنسان و جسد نمر، غلبني النعاس من جديد و بين الصحو و النوم رأيت الرسم الذي يحتل الركن يتحول إلى فأر أخذ يركض مرحاً من الركن إلى الركن و كانت تخرج من الورقة كل الرموز و العلامات التي ساءت علاقتي بها بسبب الجماعات و مثل حشرات طائرة صغيرة أخذت تحوم حول وجهي و تزن عند أذني ثم تكاتفت جميعها و أخذت تدخل إلى جوفي عن طريق فمي الفاغر و إلى دماغي عن طريق أذني.

تمددت على أرض الزنزانة الصلبة مثل الخرقة البالية شاخصاً إلى السقف.

لم أكن فزعاً و لم أفكر لوهلة صغيرة في الهرب. منذ اليوم الذي استسلمت فيه إلى فكرة أن انتقالي تحت التراب خير من مشيّ عليه ذليلاً و واقعاً في قبضة جماعات معتوهة و المشاعر التي تستولي على لا تتعدى اليأس و القنوط مع الإحساس الثابت بأنني لن اتمكن أبداً من الفكاك من قيد التفاهات المتدفقة بلا توقف من كل حدب و صوب. بالله عليكم أخبروني: ما معنى أن تكون فرداً في جماعة كبيرة تسيطر عليها جماعة صغيرة تنتهي بأن يسيطر عليها فرد واحد لعين. الموت طيب و أفضل ألف مرة من وضع كهذا. لكن حتى الموت! آهٍ ثم آه، لقد تمنع و تأبي و رفض ممارسة سطوته و جبروته بعيداً عن قبضتهم.

موتي الوشيك سيأتي على غير ما اشتهي. أفكر في كتابة رسالة أضعها في زجاجة و أرمي بها في البحر المالح. و لكن إذا تم العثور عليها لابد ستستولي عليها إحدى الجماعات و ستستغلها لمصلحتها. لكن ماذا سأكتب؟ "تباً لكم". توجد جماعة بهذا الاسم. إذا كتبت أي شيء فإن كلامي سيكون ترديدا ببغائياً لكل ما وضعت الجماعات يدها عليه فالأوفق أن أقبل بالأمر الواقع و أن استسلم للنهاية التي دنت و انا في نهاية الأمر ابحث عن الخلاص بأي ثمن و ها انا على مرمى حجر منه ففيم التشكي و فيم التباكي؟ و لكن لماذا يأتي الخلاص على هذا الطبق الذي طالما فضلت قطع يدي على مدها لالتقاط لقيمات منه مسمومات؟ دوامة فظيعة و سرعة دورانها تزيد و انا في خضمها لا فكر و لا رأي و ليس لي قدرة على الحركة قيد انملة.

كما حدثتكم من قبل، لم تكن الصورة معتمة كلها كما يقال. لقد عشت أسعد أيامي عندما كنت عضواً في جمعية "الحياة هي هنا و تستحق أن

تعاش". التقطت صوراً تذكارية جميلة مع زملائي و كنا في تلك الصور نشير إلى قلوبنا و أحياناً نوجه السبابة نحو الأرض تحت أقدامنا مباشرة لنوصل رسالة المجموعة و لنقول للآخرين إن خلاصكم هو معنا فلتدخلوا قلوبكم و لتعرفوا موقع أقدامكم. كنت صغيراً و كان الزملاء لا يدخرون جهداً في البحث عن السعادة و صناعتها و مشاركتها مع الآخرين. نجتمع حول صحن الفول فنحصل على متعة لا مثيل لها في مذاقه العادي و نتبادل القفشات و نضحك ملء أشداقنا. و كانت هناك بنت سمراء في المجموعة و كانت للبنت ابتسامة ساحرة و صوت عذب و كانت تغنى لنا و عندما تفعل كنا نغيب عن الدنيا و ما فيها و يسرى الخدر في أجسادنا و نسكر من الطرب. و بيني و بين نفسي اختصرت المجموعة في تلك البنت. في صوتها و بسمتها. في نظرتها التي ترى الغول و لكنها تتخطاه إلى الآفاق التي خلفه. الغول موجود دائماً و لكن أيضاً هناك أفق فسيح يجب أن لا ننشغل عنه بسبب أن الغول لا يتأخر عن الظهور في أي زمان و مكان. كنت أشارك صاغراً في كل الطقوس المملة التي يفرض النظام الأساسي للمجموعة على الأفراد القيام بها و من بينها الاستماع إلى تقرير يومي عن مدى تقدمنا في الالتزام ببنود ميثاق السعادة الذي توافقنا عليه. اتنظر على أحر من الجمر الانتهاء من تلك الإجراءات العقيمة و الحمقاء و عندما ينساب صوتها، و عندما ينثال اللحن من شفتيها تغشانى الطمأنينة و أعود موقناً من أنني يمكن أن انطلق في ماراثون الحياة بعد قليل بسرعة أكبر من طاقتي إذا اقتضى الأمر.

لكن تلك البنت تزوجت ثم انتحرت. تشتت المجموعة و أصبح أعضاؤها يتهربون من بعضهم البعض.

و من يومها أحدق داخلي فلا أرى سوى الغول و أنظر تحت قدمي فأرى أثر الحوافر و أمد بصري في الآفاق فلا أرى أفقا.

و عدت إلى النوم مرة أخرى و هناك رأيت أنني مت و لكن جماعة لنموت معاً لم تعجبهم طريقة رحيلي فقامو بتشريح الجثمان مع حشوه بمواد شديدة الانفجار و ألقوا به من الطابق العاشر في بناية تطل على أكثر شوارع المدينة ازدحاماً و قد نفذوا عمليتهم تلك وقت الذروة. و أقام أهلي العزاء على الطريقة التقليدية المتبعة لكن قيادات من جماعة انصار الحق جاؤوا إلى السرادق و خطبوا في الناس طويلاً ليبينوا لهم أن هذه الطريقة في العزاء لا تجوز لأنها مخالفة للشرع و حصلت مشادة انتهت بالتشابك بالأيدي و التنابذ بالألقاب. و نهضت أشلائي و اجتمعت من جديد فأخذت اتجول في شوارع المدينة و لكن فوجئت بأنني دائماً في المكان الخطأ و عندما نال مني الإرهاق (بعد كل هذه الظروف الغريبة التي مررت بها) حاولت التمدد على الرصيف فجاء من أخبرني بأن الرقاد ممنوع و غير بعيد عنه اكتشفت لافتة تشير إلى أن الجلوس ممنوع و في شارع جانبي قابلني من قال لي أن المشي في هذا الشارع ممنوع و عندما وقفت جاء من دفعني بشدة قائلاً لا تقف هنا يا حيوان و عندها حاولت الطيران عدة مرات: كنت أبسط ذراعي أفقياً و أقلد حركة الأجنحة و اتقافز و جاء الناس ليتفرجوا على و يضحكوا و بعد عدد من المحاولات الفاشلة أيقظت نفسي و جلست انتظر الجماعة التي ستطهر بالنار جسدي على أحر من الجمر.

حكاية رجل تعب من تفسير الماء بالماء

خطرت له فكرة فقرر تنفيذها على الفور. تذكر أفكاراً كثيرة سنحتْ له من قبل و لم ينفذ أي واحدة منها.

سأرمي ملابسي كلها و أهيم عاريا في الشوارع!

هههههه. ليست ملابس حتى. هي أسمال بالية. كومها على الأرض و خرج.

أول مخلوق صادفه كان ذلك الكلب الهرم متمدداً تحت شجرة النيم العملاقة المعمرة الواقفة أمام منزل الجيران. رفع الكلب رأسه و نظر ناحية الرجل العاري بعين واحدة إذ كانت الأخرى مغمضة، ثم عاد ليسند قدومه على التراب و يواصل النوم.

فكر الرجل أن يتمدد جوار الكلب و يستغرق في النوم مثله. هذا الكلب لا ينبح أبداً. لا يتحرك كثيراً. فقط تجده ممداً على هذه الوضعية في جميع الأوقات. يبدو مطمئناً و خالي البال. الرجل العاري نحا فكرة التمدد إلى جوار الكلب جانباً و مضي.

الشارع مقفر في هذه الساعة من الظهيرة و يبدو أن النهار اكتفى بالـ 48

درجة مئوية التي فرضها على الشجر و البشر و الحجر و الدواب و لم يعد لديه ما يفعله فغفا.

عند دكان سليمان البرقاوي رأى الرجل فتاتين في الزي المدرسي المرقط، تشربان البيبسي و تضحكان. أشاحت واحدة منهما بوجهها و ظلت الأخرى تحدق فيه و لا تدري ما تفعل. سليمان الذي ينتظر انصراف الفتاتين ليغلق الدكان مؤقتاً ريثما يصلي الظهر، رمق الرجل بنظرة حادة ثم أطرق ناظراً إلى قدميه كمن تلقى خبراً سيئاً. ألقى الرجل العاري التحية كأي شخص يمرّ في كامل ثيابه على جماعة من الناس فيحييهم لكنه لم يسمع رداً فاتجه إلى شارع الأسفلت و هو يحس بالخفة و الانشراح، متوجهاً صوب الشارع المزدحم بالحفر و الدقداق.

سيارات قليلة، و عدد أقل من السابلة هنا و هناك. الركشات حاضرة في المشهد بقوة بطبيعة الحال. مضى زمن طويل على ظهور الركشات في هذه المدينة و قد باتت طقطقة محركاتها الصغيرة، الصوت الأكثر حضوراً و انتشاراً في الفضاء، و أيضاً تقافزها الذي لا يهدأ، و التفافاتها المفاجئة باتت رمزاً لشحتفة الروح و ضيق الصدر و البحث عن فرص لتحقيق رغبات مستحيلة في حياة المدن المكلفتة. بالنسبة إلى صاحبنا، فإن كلب الجيران هو الكائن الوحيد، من بين جميع من عرفهم، الذي يحتفظ بمزاج راسخ و يتصرف بطريقة لا تنم عن ضيق أو قلق أياً كانت الظروف و الأحوال. انتبه بعض سائقي الركشات و الحافلات القليلة إلى عُري الرجل. التفت أحدهم التفاتة سريعة، ثم ابتسم و هو يمضي في حال سبيله. حافلة من طراز غريس،

تباطأت عندما مرّ سائقها قريباً منه. سائق الحافلة الكهل العابس تضاعف عبوسه و بدت على ملامحه علائم التفكير العميق، كأنه يخوض صراعاً ذاتياً حاداً بشأن الخطوة التي يرغب في اتخاذها: هل يوقف السيارة و يشرع في مساعدة العاري، أم يمضي و كأن الأمر لا يعنيه. عندما التقت نظرة الرجل بنظرة السائق حدث أمر غريب و بدا كأن السائق أطلع من فوره على حقيقة ظل يهرب منها، كأنه رأي ظله يهرب منه أو فلنقل أنه لمح صورته في الرجل المتنزه في كامل عريه تحت شمس النهار القاسية ، لكن صديقنا السائق سارع إلى انقاذ نفسه من مطب الرجل العاري ففي ذات اللحظة التي قرر فيها بينه و بين نفسه الوقوف قليلاً و تدبير طريقة يستر بها الرجل العريان، داس على البنزين، و فرّ بجلده.

في بحر ساعة زمن وجد الرجل نفسه محطاً للأنظار. اقتحم سوق ستة ، و بدا أن سلوكه أثار لغطاً عارماً، فاقتربت منه سيارة شرطة العمليات، و كما هو متوقع، نزل منها شرطيان غاضبان، صفعه أحدهما، قبل أن يتكفل الآخر بدفعه و حمله حملاً إلى الصندوق الخلفي المكشوف للبوكس.

ضهرية السيارة ساخنة، و بدا أن الشرطي الثالث الجالس على حافة الصندوق فضّل تجاهل المتهم ليتابع حركة السوق من خلف نظارته الشمسية الرخيصة باهتمام متعاظم.

ملازم أول غاضب استقبل الرجل العاري بسلسلة من الشتائم قبل أن يأمر بوضعه في الحجز بدون تحقيق.

قضى في الزنزانة القذرة عدة ساعات وسط جمهرة من الرجال الحانقين و قد أجبره المحبوسين على ارتداء بنطال ممزق و عراقي شديد القذارة ثم مرت ثلاث ساعات أو نحوها قبل أن يأتي شرطي غاضب ليجرّ الرجل خارج الزنزانة بدون أن ينطق و لو كلمة واحدة.

تكون الحياة سهلة عندما يسهل تنفيذ الأفكار التي تهجم على العقل بدون سابق إنذار تنفيذا فورياً و مباشراً يخلو من أي شبهة تردد أو تريث. فكرة الخروج عارياً كانت سهلة، لكن الرجل و بعد مغادرة الحبس، لم يعاود الكرة و ظل محتفظاً بالبنطلون الممزق و العراقي القذر طيلة الوقت. لا يتخلى عن ثيابه حتى لقضاء الحاجة. الأقربون حاولوا وضعه في مصحّ المجانين لكنه فرّ منهم في اللحظة الأخيرة.

و في الفرار تهاطلت عليه الأفكار. و جميعها أفكار جديدة مجنونة مدهشة. لكن للأسف، لم يتمكن سوى من تنفيذ بعضها و بصورة معيبة و لا ترقى لفكرة الانسياق وراء الأفكار بدون أي وازع. ذات مرة خطرت له فكرة تجميع كمية هائلة من قشر الموز و رميه تحت أقدام الناس للتفرج عليهم و هم يتزحلقون. فكرة جميلة و صعبة التنفيذ. يحتاج إلى كثير من الأسطح الملساء إذا أراد لهذه الفكرة نجاحاً داوياً، كما يحتاج – و هذا هو الأهم – إلى المال للحصول على الموز.

ظل يتسلل إلى السوق مدة يوم أو يومين ليحدق في أكوام الموز المعروضة على عربات يدوية أو على الأرض. عندما يبدأ التحديق يتهلل وجهه، ذلك التهلل الذي تلحظه على وجوه الأطفال عندما ينطلق حبورهم من عقاله

بسبب أمر قد يبدو للكبار تافهاً، و بعد قليل تشرع ملامحه في الذبول إلى أن ينطفيء التوهج في عينيه، عندها فإنه يستدير و يبدأ التحديق إلى الأرض بحثاً عن قشر موز قد يعينه على تطبيق فكرة التزحلق الجماعي الجميلة التي خلبت لبه طيلة الفترة الفائتة. و فجاءة صادف مكباً للقمامة في قلب السوق محاطاً بالموز التالف من كل جانب. أخذ يتزحلق على ذلك الموز و يقع و ينهض مطلقاً صيحات متتالية تجمع بين الزغردة و الثكليب إلى أن هده التعب، فانصرف و تسكع قليلاً في المحطة الوسطى و هو يتلفت على أمل أن تهبط عليه فكرة أسهل.

و شحت الأفكار كثيراً و ضنّت حتى في الأحلام.

في الليل يظن أن هناك فكرة مثل بصيص خافت تتخايل له. نور بعيد مرتعش، كأن مصدره شمعة منسية في العراء ذات يوم عاصف. لا تنطفيء رغم أن كل ارتعاشة منها توحي بأنها ستخمد فوراً، و أنها ستذوي، لكن لا، هاهي تتراقص هناك و تتوقد في الأفق، فكأن العاصفة تنفخ في جذوتها و تعيدها للحياة من حيث عملت على قتلها.

« هل سأبلغ تلك الشمعة يا ترى، أم سيُقضى الأمر؟» كان يسأل نفسه و هو يتلفت في اضطراب و وجل.

الحياة شيء غير مفهوم بالنسبة للرجل، و هو الآن غير متأكد من جدوى مغامراته التنفيذية. إنه لا يخشى الصفعات و الركلات و الكدمات، لكنه في قلق عظيم لأنه يستشعر زحف الجفاف صوب نبع الأفكار الذي ينتظر منه

الكثير. هو يكره الانتظار، و الآن بات ينتظر كثيراً، فلا تأتيه فكرة، و لا يلوح ما يبشر بأن هناك أفكاراً في الطريق. ليس هناك سوى هذه الشمعة التي صارت بدورها تغيب عن أحلامه و هلوساته بالأيام و الأسابيع، و عندما تلوح مرة أخرى، تبدو له و هي هناك مثل أنثى تدعوه لمشاركتها الرقص، لكنه يخشى أنها إنما تستدرجه ليركض صوبها لتسخر منه في نهاية المطاف. هزل جسمه، و شحب لونه فصار يتحرك مثل البعاتي، فلا هو ميت و لا هو حي. يحس أن كل شيء يهزأ به و يسخر منه.

«لست جاهزاً للرقص، لست جاهزاً للحياة بدون أفكار جاهزة للتنفيذ الفوري أيضاً،» هكذا كان يردد بينه و بين نفسه و يبسط كفيه مبتهلاً: «يا رب فكرة تحملني بعيداً، يا رب أجنحة!» فلا يحصل على غير ذلك الشعور المتعاظم بالخواء في دواخله و من حوله أيضاً. عقله أصبح ورقة مستهلكة انهكتها كتابات لغاتها غير موجودة و حتى عندما يظهر له أنه يفهم بعض تلك الشخبطات، يكتشف أنه يتعامل مع عبارات مبتورة أو أحرف متلاصقة بطريقة عشوائية. أحياناَ يظهر له حرف الظاء مكرراً مئات المرات في هيئة سلسلة طويلة لا نهاية لها. سلاسل أفقية من الظاءات تتداخل معها سلاسل أخرى عمودية و شاقولية مشقلبة، هذا غير سلاسل ظاء العنقودية مترامية الأطراف.

ربما كل هذه الظاءات هي طظ منقوصة و لا أكثر. لكن في صفحات أخرى من عقله تبدو الطاء كأنها لا ترغب في الظهور إلا و هي تكرر نفسها عقب كل مسافة كلمة من الصفحة مرتين مع واو متوسطة. ما بين طظ و طوط

تستمر حياته المتعبة. «تعبت و أيم الله» ، كان يكرر بينه و بين نفسه و يضع رأسه بين ركبتيه و ينتظر تلك الشمعة التي قد تتراقص في البعيد و قد لا . .

الأفكار العارضة منحته فرصة ممتازة و متكررة ليفعل بحياته أشياء عظيمة، لذلك لا يريدها أن تنضب. هو دائماً يشبهها بالكرات العرضية المعكوسة من الأطراف أمام المرمى. تلك الرميات التي تجهجه لاعبي الدفاع و حراس المرمى و هي أيضاً جعلت عدداً لا يستهان به من اللاعبين نجوماً يشار أليهم بالبنان، فقط لأنهم عرفوا كيفية استغلال الكرات العكسية و حولوها إلى الشباك مباشرة. من جانبه، لا يرغب في إحراز أية أهداف و يذكر جيداً أنه و في فترة هوسه بكرة القدم كان يرتاد الاستادات و الساحات المكشوفة فقط ليشاهد لاعباً يضيع هدفاً مضموناً بعد تلقيه كرة مرسلة عرضياً. أجملها تلك التي تصطدم بالعارضة أو بالقائم و التي تغير وجهتها في اللحظة الأخيرة لتطير على بعد مليمترات من المرمي بعد أن ظن الجميع أنها سكنت الشباك. ذات مرة و في إحدى الساحات المكشوفة، حدث أن اقتحم رجلنا الملعب ليحتضن مهاجماً أضاع هدفاً مضموناً بطريقة لا يمكن لها أن تتكرر و ذلك عندما طار في الهواء في وضعية سباح مسافات قصيرة يعرف جميع تفاسير الماء ليحول الكرة القادمة من الجهة اليسري إلى المرمى، و عندما استقلبت العارضة الكرة و ردتها إلى الملعب كان صاحبنا المهاجم داخل المرمي معانقاً الشباك بينما صاحبنا الرجل لم يحتمل البقاء حيث هو و قد غشيته غاشية جذب مسكرة تلبسته هكذا دفعة واحدة فتصايح و تقافز و اندفع إلى الملعب و ارتمي على زميله المنحوس تعبيراً عن فرحة طاغية، بهدف رائع ضاع.

«هانذا قادم إليك شمعتي العزيزة»، خاطب نفسه و هو ينهض بعزم و ظلّ يردد تلك العبارة تحت نور ما قبل مغيب الشمس الباهت الحزين إلى أن غادر منطقة السوق نهائياً.

لاحظ أن كل الأفكار المشعة التي تخطر له تبدأ بعبارة «سأرمي»! هي أفكار الخلاص. هي أفكار ما بعد اليأس و هي آخر الأنفاس التي يزفرها القنوط قانطاً.

طبعاً قام الرجل بسلسلة من التصرفات الرهيبة في فترة وجيزة من الزمن دون فائدة تذكر. كان يقوم بها و هو يعلم في قرارة نفسه أن هذا ليس هو المطلوب بالضبط. بينه و بين نفسه كان يقول إنه يؤدي بعض تمارين الإحماء في انتظار انطلاق المباراة الكبيرة الضخمة النهائية بين الأفكار البالية المسيطرة على العالم و الأفكار الطازجة الرعناء التي يتسقطها و ينتظر تنزلها على أحر من الجمر. «تلك منازلة لن تُبقي و لن تذر . . » قال مقهقهاً بصوت أراد أن تسمعه كل الدنيا لكن كان من الواضح أن تلك القهقهة لم تكن مسموعة أبعد من مسافة خطوتين.

و مضي في غيه حتى ظنّ أنه بلغ من العوارة ما لم يبلغه أحد. كندك شعره و كافة جسده بالرماد و امتشق سيفاً خشبياً نازل به أشباحاً غير مرئية في ساحة المصارعة الشعبية بسوق ستة فلم يأبه به أحد. حتى الشرطة عملت منو حميل. ليس ضرورياً أن يأبه الناس، المهم هو أن يستميت في البقاء على ما هو عليه في انتظار الفكرة الكبرى التي ستنقله إلى الحال التي يظنّ أن كيانه ينبغي أن يلتحم بها.

في الفترات التي لا يكون ناشطاً خلالها يتقرقص في أي ظل يصادفه و سرعان ما يتحول تقرفصه إلى الوضع الرحمي، أي أنه يتكوم على جانبه في نفس الوضعية التي يتخذها الجنين داخل الرحم و في الأثناء يمص إبهامه و قد يتوقف ليغمغم و يهمهم قليلاً قبل أن يداهمه النعاس ليحلم بالشمعة البعيدة أو ينخرط في إصدار سلسلة من الأصوات المخنوقة و قد تبلغ هلوساته درجة من العنف تجعله ينهض من النوم قافزاً إلى أعلى كأنه يتصدى لكرة عرضية لكنه يسقط من جديد قبل أن يكمل قفزته و قد يروح في سابع نومة و قد يستمر في الهلوسة و الخنخنة أو يروح في ستين داهية هو و قصته المسيخة بأفكارها البروس.

ثم نهض ذات صباح و ألقى خطبة الوداع:

حياتي ليست مرسلة على عواهنها،

حياتي بنت أفكاري

و لأنني دائماً أحس أنني وحلان في بركة ضحلة و مياهها راكدة

و آسنة

فلا مناص أمامي غير المضي قدماً إلى حيث يمكن أن يكون للماء تفسير غير الماء

و ماذا تعتقدون؟

فرغ من خطبته تلك و اتجه إلى كبري الملك نمر و في منتصف المسافة تماماً بين مدخل الكبري و مخرجه و من موقعه على ممر المشاة ألقى بنفسه في النيل.

لا أحد طبعاً سيأبه كثيراً إلى الفقاعات التي حامت على سطح الماء فوق الموقع الذي غاب تحته بالضبط.

فقاعات مثل محاولة تفسير.

و بقبقة شديدة البلاغة حامت في الفضاء لبرهة من الزمن ثم سكنت تماماً.